منهجُ القرآنِ
في تحريرِ الإنسانِ منَ الطاغوتِ

إعداد الطالب

قاسم توفيق قاسم خضر

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه

في تفسير القرآن الكريم

لجامعة العالم الأمريكية

١٤٢٩هـ الموافق٢٠٠٨م.

فهرست الموضوعات

مقدمة	**٤**
الفصل التمهيدي	٦
المبحث الأول: تعريف الطاغوت لغة واصطلاحا	٧
الطاغوت لغة	٧
الطاغوت اصطلاحا	٨
المبحث الثاني: تعريف المَنْهَج	١٣
خصائص المنهج الإسلامي ومقوماته	١٦
الفصل الأول: حديث القرآن عن الطاغوت	**٣١**
المبحث الأول: القراءة التفسيرية لكلمة الطاغوت في القرآن الكريم	**٣٢**
المبحث الثاني: أنواع الطواغيت	**٣٨**
الهوى حالة طاغوتية تُفرزها شهوات النفس المُتضخمة	٤٢
نماذج طاغوتية	٤٣
عوامل التّضخم في شهوات النفس	٤٤
العلاقة بين الشيطان وشهوات النفس	٤٥
الفصل الثاني: قاعدة التحرر والتحرير	**٤٩**
مقدمة الفصل	**٥٠**
المبحث الأول: التوحيد	**٥٣**
المبحث الثاني: العلاقة بين التوحيد والتحرر من الطاغوت	**٦٠**
التوحيد قاعدة التحرر في مناهج الأنبياء جميعاً	٦٢
أصول المنهج القرآني في تحقيق التوحيد في نفوس الناس	٦٣
الفصل الثالث: منهج القرآن في تحرير الانسان من الشهوات	**٦٧**
مقدمة الفصل	**٦٨**
المبحث الأول: التنظيم والبديل والوقاية	**٧١**
تنظيم إشباع الشهوات المباحة	٧١
البديل والعِوَض	٧٣
مفهوم البديل يرتبط بالإيمان باليوم الآخر	٧٤
لذة اليوم الآخر دائمة، ولذة الدنيا منغصة منقطعة	٧٤
الوقاية من الشهوات	٧٥

المبحث الثاني: تزكية النفس تحررٌ من الشهوات ٧٧
جهاد النفس هو التحرر ٧٧
تزكية النفس بالعبادات ٧٨
الذكر والفكر ٨١
الخاتمة ٨٣
المراجع ٨٥

مقدمـــــــــة

إنّ البحث عن الكيفية التي بها حرر القرآن الكريم الإنسان من الطاغوت ضرورة يفرزها البحث عن الحرية والتحرر والتحرير، وهي مفرداتٌ وأهدافٌ كثر عنها الحـديث فـي الوقـت الحاضر، وتعددت أوجه الاجتهاد في الوصول إليها وتحقيقها، وقامت لذلك مدارسٌ ومذاهب؛ فإنّ تطلع الإنسان نحو الحرية تطلع وشوق فطري جبلي.

والقرآن يهدي للتي هي أقوم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قول فصل ومـا هو بالهزل، وهو الحق والحقيقة، من تمسك به اهتدى ومن تركه ضـلّ وغـوى، لا تنقـضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، لذا رأيتُ من الضرورة أنْ أقدم بما استطعت رؤية القرآن لموضوع غايـة فـي الأهميـة، لأنّ القرآن – حسب ما نعتقد ونؤمن – كتاب حياة لا قصة حياة.

وعلى هدي هذه الحقائق المطلقة، أرى في بحثي أنّني أقدم لأمتي وللبشرية خدمة جليلـة، وأنبههم على فوائد عظيمة؛ فبدأت النّظر في القرآن مرة بعد مرة، مستكشفاً منهجه في التحـرر والتحرير، آملاً أن يكون بحثي معولاً إضافياً في هدم الرق بكل صوره، وسلماً للبـاحثين عـن الحرية في أحسن معانيها، وهو بعدٌ إنساني لا يخفى في عصر أصبح الإنسان برنامجـاً لتنفيـذ شهواته بدلاً من أن يكون صاحب رسالة.

وأثبت من خلال بحثي أنّ القرآن صالح لكل زمان ولهذا الزمان، وأنّه قادرٌ علـى تقـديم الإجابات للبشرية جمعاء كلما تعثرت في طريقها، وأنّه يُعينُ الغاية ويُبينُ الطريق والمنهج؛ فهو كتابٌ يعالج الواقع ولا يُحلق في الفراغ، يُقدم الوسائل والأدوات بصورة وسطية تتناسـب مـع الإنسان وفطرته، لا إفراط فيها ولا تفريط، راجياً أن يكون بحثي إثراءاً للمكتبة الإسلامية فـي جانب التفسير الموضوعي للقرآن.

إنّ الخلاص من الطاغوت يعني الخلاص من الويلات التي نراها تحـلّ بالبـشرية هنـا وهناك، لأنّ أساس كل مشكلة هي ما النفس من شهوات – سواء كانت محسوسة أو معنوية غير محسوسة – تُبيحُ لصاحبها كلّ سبيل لتحقيقها، ولو أنّ الناس أخذوا حقهم ممّا تميل إليه الـنفس، وأفسحوا المجال لغيرهم لما وقعت البشرية فيما وقعت فيه من المآسي، ولكنـه جـشع الـنفس والإفراط في تحقيق أمانيها دون نظر لما للآخرين من حقوق تشبه حقوقنا، وأماني وآمال هـي ذاتها في نفوسنا، لهذا أقول: إنّ التحرر من الطاغوت سعادة للبشرية، وخلاصٌ مـن همومهـا ومعاناتها.

منهج البحث

اعتمدتُ في منهجي في البحث على تجميع كل النصوص القرآنيـة التـي تتحـدث عـن الموضوع أو تشير إليه، والأحاديث النبوية التي تُعينني على فهم كتاب الله، وتتصل بالموضوع

أيضاً، ثم الاستعانة بالمعقول بعد المنقول، والاستنارة بأقوال الأئمة والعلماء، ثمّ توسعت بالفهم وذلك بربط المعاني الجزئية بعضها مع بعض، والخروج بمفاهيم قرآنية حول الموضوع، مستعملاً للمفردات المعاصرة لتكون أقرب لفهم القارىء.

وقمتُ بترتيب وتبويب البحث على ما تقدم من فهمي لتلك النصوص، وربطت بين تلك المفاهيم القرآنية وبين الواقع المعاش بأسلوب حركي قادر على معالجة الظواهر الواقعية المستجدة، وربما تكرر استشهادي بالآية الواحدة أكثر من مرة في مواضع متعددة، وذلك لتعدد المعاني التي تُفيدها الآية أو الآيات، وتلك سمة يتميز بها كتاب الله سبحانه.

ولا بدّ من التنبيه أنّ الإشارة (م/) – إن وُجدت أمام بعض المصادر – تعني أنّ المصدر أُخذ من المسوعة الشاملة موقع (http://www.islamport.com/ms.html)، (الإصدار ٣,١١ من برنامج المكتبة الشاملة)، وقد تكون بعض الكتب غير موافقة للمطبوع؛ فاقتضى التنويه، وأمّا ما لا إشارة عليه فهو من الموسوعة الشاملة الإصدار الأول.

وبخصوص المراجع فقد وضعتُ الاسم الموجود في الموسوعة، ووضعتُ أمامه ما توفر من معلومات عنه من خلال بطاقة الكتاب تسهيلاً للرجوع إلى أي مرجع منها، ووضعت علامة (م/) للدلالة على أنّ المرجع من الموسوعة الشاملة (الإصدار ٣,١١ من برنامج المكتبة الشاملة)، والله الموفق.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول: تعريف الطاغوت.

المبحث الثاني: تعريف المنهج.

المبحث الأول

تعريف الطاغوت لغة واصطلاحا

الطاغوت لغة

من طَغِيَ والفعل طَغَيْت والاسم الطَّغْوى، أو من طَغَوَ طَغَوْت يطغى ويطغو طغيانا وطغوانا، وهو طاغٍ وهم طاغُونَ، وقيل: منهما كما في قوله تعالى: ''كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا''[الشمس:١١]، أي بطغيانها، وهما مصدران، إلاَّ أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات؛ فاختير لذلك، وفي التنزيل العزيز: ''وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ''[الأنعام:١١٠]، وقال الزجاج: أصل طغواها طغياها، وأبدلت في الاسم واوا ليفصل بين الاسم والصفة[1].

وأصل وزن طاغوت فَعَلُوت من الفعل طَغِيَ أو طَغَوَ والياء أكثر[2]، فمن طَغِيَ طَغَيُوت، ثم قدمت الياء قبل الغين محافظة على بقائها؛ فصارت طَيَغُوت، وقُلبت الياءُ ألفاً فصارت طاغوت، ومن طَغَوَ طغووت، ثم قدمت الواو قبل الغين فصارت طوغوت، ثمَّ قُلبت الواو المفتوحة ألفاً فصارت طاغوت[3]، وهي صيغة بناء للمبالغة في المصدر كرحموت وملكوت وجبروت[4]، لأنَّ الطاغوت رأس في الضلال، وحالة إسراف في المعاصي والظلم[5]. وقيل: (إنه اسم أعجمي، مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت)[6]، وهذا قول ضعيف لم تسانده معاجم اللغة.

والطاغوت يقع على الواحد كقوله تعالى: ''يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ''[النساء:٦٠]، والجمع كقوله تعالى: ''وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ''[البقرة:٢٥٧]، والمذكر كما في الآيات السابقة، والمؤنث كقوله تعالى: ''وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ''[النحل:٣٦]، وهي هنا اسم تأنيث يعني اللات والعزى[7].

و(يطغو طغيانا جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر)[8]، وكل شيء يجاوز القدر فقد طغى، كما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصيحة على ثمود، يقول تعالى: ''فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ''[الحاقة:٥]، ويقول تعالى: ''إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ''[الحاقة:١١]، ويقول

---

[1] انظر: لسان العرب، مادة: طغي(٧/١٥)، والعين، باب: الغين والطاء، مادة: طغي(٤٣٥/٤).

[2] انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن(١٠٧/١).

[3] انظر: لسان العرب، مادة: طغي (٩،٨/١٥)، والمصباح المنير، مادة: طغا(٣٧٣/٢)، وغريب الحديث، باب: طغا(٦٤٣/٢)، وشرح النووي على صحيح مسلم(١٨/٣).

[4] انظر: الاتقان(١٤٠/٢)، وفتح القدير(٤٥٦/٤)، وروح المعاني(١٣/٣).

[5] انظر: مختار الصحاح، مادة: طغو(١٦٥/١)، والقاموس المحيط، فصل الطاء، مادة: طغي وطغا(١٦٨٥/١).

[6] تفسير القرطبي(٢٤٣/١٥)، وانظر: فتح القدير(٤٥٦/٤).

[7] انظر: لسان العرب، مادة: طغي(٩/١٥)، مختار الصحاح، مادة: طغو(١٦٥/١)، والعين، مادة: طغو وطغي(٤٣٥/٤)، والمصباح المنير، مادة: طغا(٣٧٣/٢)، والنهاية في غريب الحديث، باب الطاء مع الغين(١٢٨/٣).

[8] لسان العرب،مادة: طغي(٧/١٥).

تعالى: '' كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى''[العلق:٦]، ويقول تعالى: '' وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي''[طه:٨١]، ويقول تعالى: ''فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا''[الكهف:٨٠].

وأطغاه المال جعله طاغيا، وطغى البحر هاجت أمواجه، وطغى السيل جاء بماء كثير، والطَّغْوَى بالفتح مثل الطُّغْيَانِ، والطاغية الصاعقة، وقوله تعالى: ''فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ''[الحاقّة:٥]، اسم كالعاقبة والعافية، والمعنى صيحة العذاب. و(الطَّغْيَةُ: المستصعب العالي من الجبل)[9].

ونخلص من التعريف اللغوي إلى أنَّ الطاغوت حالة قصوى في الانحراف والعصيان، فالمسافة بين الاعتدال وبين الطاغوت مسافة شاسعة، والتباين بينهما كبير جداً، فحالة الطاغوت ليس مجرد انحراف ومعصية بل هي حالة مبالغة في الإثم والخطيئة؛ وعليه لا يكون الخروج عن حد الاعتدال والوسطية حالة طاغوتية إلاَّ إذا كان هذا الخروج خروجاً كبيراً مبالغاً فيه، والنصوص الشرعية هي التي تبين لنا هذه الحدود، وعليه فإنَّ كلَّ حالة سمَّاها القرآن طاغوتاً تُعدُّ حالة قصوى في الانحراف والعصيان.

الطاغوت اصطلاحا

اختلفت أقوال العلماء في تعريفه، فقد عرفه ابن جرير الطبري (أنَّه كل ذي طغيان على الله؛ فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممَّن عبده له، إنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء)[10]، وذكر القرطبي أنَّ الطاغوت (كلُّ معبود من دون الله، أو مطاع في معصية الله)[11]، وعدَّ ابن كثير القولَ في الطاغوت (إنَّه الشيطان قويٌ جدا؛ فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها)[12]، وقال ابن هشام: (الطاغوت كل ما أضل عن الحق)[13].

وعدَّ ابن تيمية رحمه الله الطاغوت كلَّ معبود من دون الله إذا لم يكن كارها؛ فمن تُحوكِمَ إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت[14]، أمّا ابن القيم فقال: (الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه، غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة

---

[9] لسان العرب، مادة: طغي (٨/١٥).

[10] تفسير الطبري(١٩/٣).

[11] تفسير القرطبي(٢٤٩/٥)، وانظر: فتح القدير(٤٧٧/١)، والتسهيل(١٩٣/٣).

[12] تفسير ابن كثير(٣١٢/١).

[13] السيرة النبوية(١٠٠/٣).

[14] انظر: فتاوى ابن تيمية(٢٠٠/٢٨).

لله)[15]، وفي شرح النووي (قال الليث وأبو عبيدة: روينا وجماهير أهل اللغة الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى)[16].

وهناك من عرَّف الطاغوت بالشيطان، أو الأوثان والأصنام، أو الكاهن، أو الشاعر[17]، وما هذا إلاّ تعريف بصنف من أصنافه أو بصورة من صوره، وهو من باب التمثيل[18]، لأن الطاغوت اسم جنس لما عبد من دون الله[19]، والجامع بين تلك الصور والأصناف هو عبادة غير الله، والانصراف عن الهدى بسبب من الأسباب، فقد يكون السبب هو الهوى كما في قوله تعالى:'' أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ''[الفرقان:٤٣]، وقوله تعالى:'' أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ''[الجاثية:٢٣]، أو الشهوة، أو الجاه، أو الشيطان، أو غيره، والنتيجة واحدة هي الانصراف عن عبادة الله وعبادة غيره؛ فكل ما يُطغي الإنسان فهو طاغوت.

وأَخلُص من هذا كله إلى تعريف الطاغوت في الاصطلاح على أنَّه: **كلُّ ما عُبد من دون الله برضاه**[20]، **أو كان سبباً في تلك العبادة**، أي صار صارفاً عن طريق الخير[21]؛ فلا يجوز الاكتفاء بظاهر مَنْ تُوَجَّهُ له العبادة – أي الصور التعبيرية الظاهرة – بل لا بدَّ من البحث عن السبب الكامن وراء تلك العبادة، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا[22] بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ''[يونس:٢٨]، وقوله تعالى: ''وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ''[النحل:٨٦]؛ فهم (عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنَّها الآمرة بالإشراك، لا ما أشركوا به)[23]، لأنَّ ما أشركوا به صورة تعبيرية ظاهرية تتطابق مع زعمهم وافترائهم ولا تُعَبِّرُ عن حقيقة ما عبدوا[24]، يقول الله تعالى: ''وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ

---

[15] إعلام الموقعين(٥٠/١).

[16] شرح النووي على صحيح مسلم(١٨/٣).

[17] انظر: زاد المسير(٣٠٦/١).

[18] انظر: روح المعاني(١٣/٣).

[19] انظر: التسهيل(٩٠/١)، والكشاف(١٨١/٢)، والمحرر الوجيز(٣٤٥/١).

[20] انظر: المحرر الوجيز(٣٤٤/١).

[21] المفردات، كتاب: الطاء، مادة: طغى(٣٠٥/١).

[22] (المزايلة المفارقة. يقال: زايله مزايلة وزيالا أي فارقه، والتزايل التباين) مختار الصحاح، مادة: زيل (١١٨/١)، وانظر: لسان العرب، مادة: زيل(٣١٦/١١).

[23] تفسير البيضاوي(١٩٥/٣).

[24] أو لأنَّ الشركاء كانوا غير راضين بعبادتهم؛ فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله لا في العبادة، أي أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وكل هذه الاحتمالات تؤكد عدم الاكتفاء بظاهر من تُوجَّه إليه العبادة. انظر: التسهيل(١٦٠/٢)، وأضواء البيان(٤٢٤/٢).

أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[25]''[الأنعام:٢٢]؛ فهو مجرد زعم وافتراء لا رصيد له في واقع الأمر.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: '' احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[26] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ''[الصَّافات:٢٢-٢٣]؛ فالعموم يقتضي حضور كلِّ ما كانوا يعبدون من دون الله، أي حضور كلِّ المعبودين[27]، ولو كان المقصود هو ظاهر ما عبدوا لأُحضرت الملائكة والمسيح عليه السلام، وهو قول مردود لا يقول به أحد[28]، لكونهم غير معبودين على وجه الحقيقة؛ فالطاغوت هو السبب الكامن وراء تلك العبادة، والملائكة ليست سبباً في ذلك، ثمَّ إنّها عُبدت بغير رضاها[29]، ودليل ذلك قوله تعالى: '' وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ''[سبأ:٤٠-٤١]، أي (يطيعون الشياطين)[30] لأنّها زينت لهم تلك العبادة.

ومثل ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''تعس عبد الدينار والدرهم''[31]؛ فالمعبود الظاهري هو الدرهم لكونه السبب الظاهري للغواية والانحراف، وقد سمّى الله – سبحانه– المال في كتابه فتنة، كما في قوله تعالى: '' إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ''[التغابن:١٥]، بل وعدَّه القرآن سببا للطغيان بقوله تعالى: ''كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى''[العلق:٦-٧]،

---

[25] وهناك كثير من الآيات تدلُّ على هذا المعنى منها قوله تعالى: '' وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[الأنعام:٩٤]، وقوله تعالى: '' قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً[الإسراء:٥٦]، وقوله تعالى: '' وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا''[الكهف:٥٢]، وقوله تعالى: '' وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ''[القصص:٧٤]، وقوله تعالى: '' قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ''[سبأ:٢٢]، ونلحظ في هذه الطائفة من الآيات الكريمات أنَّ الزعم ادعاء باطل لا أساس له من الصحة.

[26] أي: (وقرناءهم) التبيان في تفسير غريب القرآن(٣٥٢/١)، وانظر: لسان العرب، مادة: زوج(٢٩٣/٢)، ومختار الصحاح، مادة: زوج(١١٧/١).

[27] انظر: روح المعاني(١٢١/٧)، وفتح القدير(٣٩٠/٤).

[28] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ''لما نزلت '' إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ''[الأنبياء:٩٨]؛ فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله.؛ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها. قال: فنزلت '' إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ''[الأنبياء:١٠١]، عيسى وعزير والملائكة''. مستدرك الحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنبياء، (٤١٦/٢) رقم(٣٤٤٩)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وانظر: مشكل الآثار للطّحاوي، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله، رقم(٨١٨).

[29] يقول ابن تيمية رحمه الله: (وكل من عبد غير الله فإنّما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنّه يعبد الملائكة)، فتاوى ابن تيمية(٢٨٣/١٤).

[30] تذكرة الأريب في تفسير الغريب(٩٦/١)، وانظر: تفسير البغوي(٥٦١/٣).

[31] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (١٠٥٧/٣) رقم(٢٧٣٠).

ومع ذلك فالدرهم ليس هو المعبود على وجه الحقيقة لأنّه مجرد من الإرادة والاختيار، وإنّما المعبود الحقيقي هو إرادة حب المال التي سيطرت وطغت على ذات العابد، وعبَّرت عن ذاتها بصورة ظاهرية هي عبادة الدرهم، والدليل على تلك الإرادة والنزعة قوله تعالى: ''وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ[32]''[العاديات:٨]؛ فحب المال سببٌ في البخل، وسبب في النفاق من أجل المحافظة على الأموال[33]؛ فإذا تَضَخَّمَ حب المال في النفس صار إلهاً يُعبد من دون الله، وهذا هو معنى عبادة الدرهم والدينار.

أمَّا الأصنام فهي مجردة من الإرادة؛ فلا يصح أن تُسمى طاغوتاً على وجه الحقيقة، بل هي الصورة التعبيرية الظاهرية عن المعبود الحقيقي المُتمثل بالمحافظة على الجاه أو الزعامة الموروثة المُكتسبة من تلك العبادة، وكلٌّ (من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، وإنما يعبد هواه؛ إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه؛ فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبر عنها بالهوى)[34].

وخلاصة القول أنَّ كلَّ ما سمَّاه القرآن طاغوتاً فهو إمّا أن يكون صورةً تعبيرية ظاهرة عن السبب أو الأسباب الكامنة وراء تلك العبادة، وإمَّا أن يكون هو السبب ذاته الحامل على عبادة غير الله؛ فتعريف الطاغوت على أنّه ''كل معبود من دون الله'' تعريف صحيح إذا كان المعبود هو السبب الحامل على تلك العبادة، أو هو ما عُبد من دون الله برضاه؛ فليس الطاغوت هو من تُوجَّه العبادة في ظاهر الأمر له؛ فالأصنام حجارة لا تضر ولا تنفع، وهي مجردة من الإرادة، وأكثر من ذلك أن تعلم أنَّ الحجارة على أي صورة وُجدت فهي تسبح الله[35]، فكيف تكون سبباً يحمل على عبادة غير الله؟

ونخلص من هذا إلى أنَّ وصف الطاغوت لا يصح إلاّ باجتماع شرطين:

الأول: أن يكون الموصوف معبودا من دون الله وليس عابداً.

الثاني: أن لا يكون المعبود منزوع الإرادة، ويظهر هذا إمّا بكونه سببا في تلك العبادة، أو أن يُعبد برضاه.

---

[32] لشديد، أي لبخيل، و(المُتَشَدِّدُ البخيل كالشديد)،لسان العرب، مادة: شدد(٢٣٤/٣).

[33] انظر: تفسير أبي السعود (١٩١/٩).

[34] مناهل العرفان(٣٤/٢).

[35] يقول الله تعالى: ''وإن من شيء إلاّ يُسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم''[الإسراء:٤٤]، وهذا التسبيح قد يكون بلسان الحال حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع العظيم، وإمّا أن يكون التسبيح على وجه الحقيقة كما يُفيده ظاهر اللفظ، ولكن (لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين). تفسير ابن كثير(٤٣/٣)، وثبت في صحيح البخاري عن عبد الله ابن مسعود أنه قال: ''ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل''. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه(١٣١٢/٣)رقم(٣٣٨٦).

ولهذا فإنّ أجمع تعريف للطاغوت في الاصطلاح هو: كلُّ ما يُطغي الإنسان، ومن هنا نحدد بشكل دقيق لا لبس فيه الغاية التي نريد والمُتمثلةُ بتحرير الإنسان من الطاغوت، والمعنى أنّ البحثَ ينصبُّ على الأسباب التي تؤدي إلى طغيان الإنسان؛ فإذا استطعنا أنْ نحدد الأسباب فنكون حينئذٍ قد شخصنا المرض تشخيصاً دقيقاً، وتشخيص المرض أساسٌ لا بدّ منه في معرفة العلاج، ويبقى بعد تحديد الغاية – المتمثلة بالقضاء أو تجنُّبِ أسباب الوباء – البحثُ في المنهج الكفيل بتحقيق تلك الغاية، وبهذا أكون قد وضعتُ بحثي على جادة الطريق، وألخصه بعبارتين هما:

الأولى: تحديد الغاية، وهي تحرير الإنسان من الطاغوت.

الثانية: تحديد المنهج الموصل لتلك الغاية.

وهما أمران ضروريان في تحقيق عملية التحرير، والخطأُ في إحداهما هزيمة في معركة التحرير التي نريد.

المبحث الثاني

تعريف المَنْهَج

لغة: من الفعل (نَهَجَ أي وَضَحَ، وطريق نَهْجٌ بَيّنٌ واضحٌ، والمِنْهاجُ كالمَنْهَجِ، والمنهاج الطريق الواضح، وفي حديث العباس لم يمت رسول الله حتى تركّكم على طريق ناهجة أي واضحة بينة[٣٦]، والنَّهْجُ الطريق المستقيم)[٣٧]، و(نَهَجَ الطريقُ وَضَحَ واستبانَ، وأنْهَجَ بالألف مثله)[٣٨]، وفي التنزيل ''لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا''[المائدة:٤٨]، فالشرعة والشريعة هي (ما يبتدأ فيه إلى الشيء، ونقول: شرع في كذا أي ابتدأ فيه، وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل)[٣٩]، وقالوا: الشرعة هي الدين، والمنهاج الطريق[٤٠]، وهي السنَّة والسبيل[٤١] لقوله صلى الله عليه وسلم: '' فمن رغب عن سنتي فليس مني''[٤٢]، و(المراد بالسنة الطريقة، لا التي تقابل الفرض)[٤٣].

اصطلاحاً: المنهاج هو الطريق التي هدى إليها القرآن الكريم في الوصول إلى كل ما أراده الله سبحانه، أو هو الطريق التي تُؤدَّى بها التكاليف والوظائف المنوطة بكل مخلوق لقوله تعالى: ''الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى''[طه:٥٠]، أي ألهمه مصلحته[٤٤]، ولا شيء أعظم من المنهج تحقيقاً للمصلحة، ولقوله تعالى:''إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم''[الإسراء:٩]، أي (الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب)[٤٥]على وجه الإطلاق، ويُقابله الضلال وهو كل عدول

---

[36] انظر: النهاية في غريب الحديث(١٣٣/٥)، والفائق(٣٥/٤).

[37] لسان العرب، مادة: نهج(٣٨٣/٢) مع بعض التصرف، وانظر: مختار الصحاح، مادة: نهج(٢٨٤/١)، والعين، مادة: نهج(٣٩٢/٣)، وغريب الحديث للحربي، باب: نهج(٥٠٣/٢)، وغريب الحديث للخطابي(٢٤١/٢).

[38] المصباح المنير، مادة: نهج(٦٢٧/٢).

[39] تفسير ابن كثير(٦٧/٢)مع بعض التصرف، وانظر:تفسير الطبري(٢٦٩/٦)، وتفسير القرطبي(٢١١/٦)، قال الألوسي: (والمنهاج الطريق الواضح فى الدين، من نَهَجَ الأمرُ إذا وضح)، ثمَّ تعرَّضَ لأقوال متعددة؛ فقال: (وقيل: الشرعة الطريق مطلقا سواء كان واضحا أم لا، وقيل: المنهاج الدليل، وقيل: الشرعة النبي صلى الله عليه وسلم والمنهاج الكتاب، وقيل: الشرعة الأحكام الفرعية والمنهاج الأحكام الإعتقادية، وليس بشيء) روح المعاني(١٥٣/٦).

[40] انظر:الإتقان(٣٤٨/١)، وزاد المسير(٣٧٢/٢)، وفتح القدير(٤٨/٢).

[41] انظر: أحكام القرآن(٩٧/٤)، وفتح القدير(٤٩/٢)، وتفسير الثوري(١٠٣/١)، ومعاني القرآن(٣١٨/٢).

[42] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء(١٩٤٩/٥) رقم(٤٧٧٦).

[43] وقوله: ''فليس مني''، (إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه؛ فمعنى ''فليس مني'' أي على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج عن الملة. وإن كان إعراضا وتنطعا يُفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله؛ فمعنى ''فليس مني'' ليس على ملتي؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر). فتح الباري(١٠٥/٩ ، ١٠٦)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم(١٧٤/٩).

[44] انظر: معاني القرآن(٦٦/١).

[45] تفسير القرطبي(٢٢٥/١٠). وانظر:تفسير الطبري(٤٦،٤٧/١٥)، وتفسير أبي السعود(١٥٨/٥).

عن المنهج[٤٦]، لأنَّ العدول عن المنهج يعني السير على منهج آخر لا يوصل إلى الغاية، وهذا هو الضلال بعينه.

ويدخل في هذا التعريف الطريق التي هدى القرآن إليها فيما أراده الله من تحرير الإنسان، وتكون السنة – التي بمعنى السبيل والواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: ''فمن رغب عن سنتي فليس مني''[٤٧] – هي الجانب التطبيقي لذلك المنهج الوارد في القرآن في تحقيق الوظائف والأهداف والغايات التي أرادها الله سبحانه وتعالى.

ويُبنى على المنهج التفاصيلُ والفروعُ التي تتغير مع تغير الظروف الزمانية والمكانية، وتُمثل تلك التفاصيل والفروع هامشَ الجهد والاجتهاد البشري في إيجاد حلول للحالات الطارئة يستقل بها العقل البشري، ويستمدها من تلك الأصول المنهجية، وفي حدود المنهج الرباني، ولا تستدعي رسالة جديدة، وعلى قاعدة ربط المتغير بالثابت، أو الحركة المتغيرة حول المحور الثابت لكونه منهجاً صالحاً للتجاوب مع الحياة المتجددة النامية[٤٨].

والمنهج حسب التعبير القرآني هو الصراط المستقيم، يقول تعالى: ''وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ''[الأنعام:١٥٣]، وعن ابن مسعود قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده، ثم قال: ''هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ''وأنَّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله''[الأنعام:١٥٣][٤٩].

فالتزام المنهج ضرورة يساوي في أهميته حقائق الدِّين ذاتها، لأنَّ المنهج تكاليف شرعية ينتج عن الالتزام بها الوصول للأهداف والمقاصد الشرعية، لأنّ التحرر والتحرير مقصد شرعي لا يتم إلا بمنهج شرعي، ثمَّ إنَّ التزام المنهج في عملية التحرر والتحرير لا يؤدي غرض الوصول المباشر للهدف وحده، بل يؤدي إلى تحقيق أغراض أُخرى، ولا تكون له أعراض

---

[46] انظر: المفردات(٢٩٧/١)، والتعاريف(٤٧٤/١).

[47] صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء(١٩٤٩/٥) رقم(٤٧٧٦).

[48] انظر: الظلال(٢٤٧، ٢٨٣).

[49] المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام(٣٤٨/٢) رقم(٣٢٤١)، وقال الحاكم: ''هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده لفظاً واحداً حديث الشعبي عن جابر من وجه غير معتمد''، وانظر: مشكاة المصابيح(٣٦/١) رقم(٢٧)، وقال الألباني: ''حسن''، و انظر: مسند أحمد، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(٤٣٥/١) رقم(٤١٤٢)، وصحيح ابن حبان، المقدمة، باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلاً وأمراً وزجراً (١٨٠/١) رقم(٦)، وسنن الدارمي، أبواب متفرقة : في صفات النبي وفي العلم ونحوها، باب في كراهية أخذ الرأي(٧٨/١) رقم(٢٠٦).

جانبية سلبية، وفي المقابل فإن البعد عن المنهج القويم يأتي بنتائج عكسية تترك آثارا سلبية على الفرد والمجتمع.

وأصول المنهج القرآني ثابتة ثبات الأصول الإنسانية والفطرة البشرية والقوانين الكونية، لقوله تعالى: ''سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً''[الإسراء:٧٧]، وقوله تعالى: ''سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً''[الأحزاب:٦٢]، وقوله تعالى: ''فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً''[فاطر:٤٣]، والسنة هي الطريق التي أرادها الله سبحانه[٥٠]، والنفي هو للتبديل والتحويل؛ فهي سنة جارية مع الأسباب المُقتضية لمسبباتها[٥١]، و(تخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما)[٥٢]؛ فلا يجوز – والحال كما ذكرت – أن نضع جهودنا تحت التجربة والاختبار والاحتمال والشك ما دام هناك منهج مضمون النتائج معلوم القواعد.

وهنا لا بد من لفت النظر إلى كون المنهج ثابت بأصوله متغير بفروعه وحيثياته، كما هو حال الإنسان – غاية التحرير وأداتها معاً – ثابت بغرائزه وجوهره ومضمونه مُتلونٌ بإبداعاته وملابسات حياته الفرعية، وهو المعنى المُستفاد من قوله تعالى: ''وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ''[الروم:٢٢]، وعليه فإنّ إهمال جزء من المنهج يعني تشوهاً ما في النتيجة يُقابل ذلك الجزء المُهمل.

وتظهر أهمية المنهج بالتناسب والانسجام مع طبيعة النفس البشرية التي هي غاية التحرير ووسيلته؛ فالله سبحانه يعلم ما يناسب هذه النفس التي خلقها، يقول تعالى: ''أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ''[الملك:١٤]، ويقول تعالى: ''يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ''[غافر:١٩]؛ فهو العليم بذات الصدور، والعليم بأسرار النفس وكوامنها؛ فلا يكلفها إلا ما كان في وسعها، لأنَّ الله حين خلق الإنسان خلقه لحكمة؛ فأتى به كما أراد – سبحانه – أن يكون[٥٣]؛ ولمّا كان المنهج قائماً على الخبرة المطلقة والعلم بكل دقائق الأمور، لا على التخمين والترجيح والاحتمالات، فلا سبيل لتحرير النفس إلا بالتزامه.

إنَّ الترابط والتناسق والتناسب بين الطبيعة البشرية ومنهجها أدَّى إلى تسهيل عملها للوصول إلى الأهداف والغايات المرسومة لها؛ فهي إنما تعمل وفق طبيعتها كما تنساب العصارة في النباتات؛ ''فكل ميسر لما خلق له''[٥٤]؛ فالمشقة مُحتملةٌ، لأنَّ كل مخلوق ميسر للغاية التي

---

[50] انظر: المحرر الوجيز (٤/٤٤٤).

[51] انظر: تفسير السعدي (١/٦٧٢).

[52] تفسير أبي السعود(٧/١٥٦).

[53] انظر: فهم القرآن (١/٣٣٨-٣٣٩).

[54] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الليل (٤/١٨٩١) رقم(٤٦٦٦).

من أجلها خُلِقَ[55]، ومثال ذلك النَّحْل؛ فوظيفة إنتاجِ العسل تقتضي تيسير السبل لذلك، وهو المعنى المُستفاد من قوله تعالى: ''وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً''[النحل٦٨-٦٩]؛ فهناك تناسب تام بين القدرات الممنوحة والتكاليف أو الوظائف المطلوبة.

ولمّا كان المنهجُ ذا أهمية بالغة لم يترك القرآن تحديد ذلك المنهج للبشر، ولا لتجاربهم المحدودة، لأنّنا لا نستطيع الإحاطة بالأسباب التي من أجلها يُصاغ ذلك المنهج، ولا النتائج البعيدة من ورائه، فما لا يتم في هذه الجولة قد يتم بما بعدها من جولات[56]؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يُبدل ولم يُغير من قيمه وغاياته التي حددها القرآن الكريم رغم شدة العقبات التي واجهها في مكة في ظرف يجعل كل شيء قابل للمراجعة والنقد، ولكنه أصر على قيمه ومبادئه وأخذ يبحث عن مخرج للدعوة لا أن يعدل فيها.

خصائص المنهج الإسلامي ومقوماته

الحديث عن خصائص ومقومات المنهج الإسلامي بشكل عام يُعدُّ حديثاً عن خصائص ومقومات المنهج القرآني في تحرير الإنسان من الطاغوت، لأنَّ الوصول للغايات القرآنية يتحقق بالأخذ بالمنهج القرآني العام، ويبقى بعد ذلك بعض التفصيلات الفرعية التي تتصل بحيثيات تفصيلية تخص هذه الغاية أو تلك، أمَّا المُخطط العام فهو قاعدة لكل الغايات والأهداف المرجوة.

وحين النظر في القرآن الكريم وهدي سيد المرسلين أجد أنَّ خصائص المنهج تتحدد في أمور عديدة أهمها:

١- منهج ربانيّ يمتاز بالشمول والتكامل والتوازن مُنبثقٌ من عبادة الله وحده:

وربانية المنهج تعني قيام المنهج على توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتعني قيامه على العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، وتعني براءته من الجهل والهوى والضعف والشهوة، وملائمته لقواعد الكون ونواميسه، وتميُّزه بالشمول والتكامل والتوازن والترابط والتناسب لأنّه منبثق من تصور كامل متكامل متوازن شامل لحقيقة ولغاية الوجود كله، والمُتمثلة بعبادة الله وحده، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى: ''وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ''[الذاريات:٥٦]؛ فالغاية النهائية للمنهج هي عبادة الله وتوحيده، وهي الغاية التي من أجلها خلق الله سبحانه الجنَّ والإنْس؛ فهو منهج عبادة، والعبادة (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله،

---

[55] انظر: فتح الباري(٤٩٧/١١)، وشرح النووي على مسلم(١٩٦/١٦).

[56] انظر: الظلال(١٤).

ويقصد بها العبد وجه الله وحده)[٥٧]، و(العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى)[٥٨].

وكونه منهج عبادة فهو يشمل ويتسع لكل النشاطات الإنسانية، ويعمل على أن تكون كل حركة للإنسان في هذه الحياة عبادة تقربه من الله؛ ويظهر هذا المنهج الشمولي لمعنى العبادة في قوله صلى الله عليه وسلم: ''وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا''[٥٩].

وهو منهج يدفع بالبشرية نحو كمالها المُقدَّر لها بتكامل وترابط بين الأصول والفروع، وبين الوسائل والغايات، وبين القدرات والوظائف من غير تنافر واختلاف، يقول تعالى: ''أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا''[النساء:٨٢]، والمعنى أنَّه لا تناقض في أحكامه ومعانيه[٦٠]، بل يصدق بعضه بعضاً، ولهذا فإنّ المنهج الذي يُبنى على القرآن يتصف بصفاته من حيث عدم الاختلاف والتناقض، وغيره من المناهج تتصف بالتناقض والتنافر؛ فتكون نهاياتها متناقضة متضاربة، وهذا ما نشاهده في حياة الناس حين يزداد الانحراف وتنتشر الجريمة ويظهر الاضطراب والقلق... فالمفاسد قيود، وللتحرر منها لا بدّ من سلوك منهج مضمون المُقدمات والنتائج.

٢- منهج يتصف بالإحاطة[٦١]:

والمعنى أنّه موضوع للمدى الطويل الذي لا يعلمه الله؛ فعِلْمُ الإنسان محكوم بعمره وقدراته العقلية وتجاربه الذاتية وخبراته الشخصية؛ فهو علم محدود بحدود بشرية تتصف بالنقص والقصور، ولهذا كان تَخَطِّي المنهج عمل محفوف بالمخاطر غير مضمون النتائج، فالذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف،

---

[57] تفسير السعدي(٦٩/١) مع بعض التصرف، ومنهم من عرَّف العبادة بأنّها: فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه، وقيل: تعظيم الله وامتثال أوامره، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض.[التعاريف٤٩٨/١]، وانظر: [التعريفات١٨٩/١]، وفي الحدود الأنيقة٧٧/١: ''العبادة ما تعبد به بشرط النية ومعرفة المعبود، ويقال: تعظيم الله تعالى بأمره''.

[58] المفردات، كتاب العين (٣١٩/١).

[59] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/٢) رقم(١٠٠٦).

[60] و(الاختلاف على ثلاثة أوجه: اختلاف تناقض، بأن يدعو أحد الشيئين إلى فساد الآخر. واختلاف تفاوت، وهو أن يكون بعضه بليغا وبعضه مرذولا ساقطا، والثالث اختلاف التلاؤم، وهو أن لا يكون الجميع متلائما في الحسن)أحكام القرآن للجصاص(١٨٢/٣) مع بعض التصرف.

[61] والإحاطة من الفعل حوط، ويقال: (أحاط القوم بالبلد إحاطة، أي استداروا بجوانبه) المصباح المنير، كتاب الحاء، مادة: حاط(١٥٦/١)، و(كل من أحرز شيئا كله وبلغ علمه أقصاه فقد أحاط به. يقال: هذا أمر ما أحطت به علما) العين، باب الحاء والطاء، مادة: حوط (٢٧٧/٣).

فالطريق إلى الهدف الكبير طويل ولكنه دقيق في خطواته وأهدافه دون عجلة أو تباطؤ، ولقد تدفع الحماسة واستعجال النتائج إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع المنهج، والمؤمن يدركُ بمقتضى إيمانه أنَّ منهج الله كلَّه خير لأنّه من الله، ومع ذلك قد يحتاج بعض من ضعف إيمانه لبعض التجربة حتى يتبين له عقمها وسوء عاقبتها [٦٢].

والشواهد القرآنية على ما قدّمناه كثيرة، منها قوله تعالى: ''وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا''[النساء:١٢٦]، وقوله تعالى: ''إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ''[فصلت:٥٤]، وقوله تعالى: ''وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا''[الطلاق:١٢]؛ فلا يخفى عليه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو القادر على أن يضع للإنسان ما يصلح شأنه في الدنيا والآخرة، وهو معنى قوله تعالى: ''أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ''[الملك:١٤]؛ فالذي يعلم من خلق يعلم المنهج الذي يناسب قدراته واستعداداته، وغير ذلك يكون الهوى والتجربة والعثرات.

وحين يستحسن العقل شيئاً أو يُرجِّح المصلحة فيه – وهو مُنقطعٌ عن الحق – يكون عرضةً للخطأ لاعتماده على الخبرة المحدودة والتجربة القاصرة والمصالح القريبة الظاهرة والإحاطة الناقصة[٦٣]؛ فالعقل بمعزل عن المنهج لا يستطيع إدراك المصلحة العميقة والأهداف البعيدة، وهذا ليس تعطيلاً للعقل، وإنما إعطاؤه الدور القادر عليه حتى يُنتج ويُبدع.

٣– **الواقعية والتيسير**؛ فهو منهجٌ يأخذ في حسابه واقع هذا الكائن البشري، طاقته وحدود تحمله واستعداداته ومقوماته، وقوته وضعفه، وحاجاته وضروراته، وحالاته المتغيرة التي تعتريه، والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ''يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا''[النساء:٢٨]، وقوله تعالى: ''يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ''[البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ''مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ''[المائدة:٦]، وقوله تعالى: ''وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ''[الحج:٧٨]، ومن مظاهر رفع الحرج (الرخص الشرعية، كقصر الصلاة في السفر والإفطار في رمضان فيه، وصلاة العاجز عن القيام قاعدا، وإباحة المحظور للضرورة، إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير)[٦٤].

وأنتجت هذه الخاصية الروح العملية في جماعة المسلمين؛ فهو منهج للتنفيذ والتطبيق لا منهج للدراسة النظرية، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ''وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ

---

[62] انظر: الظلال(١٤، ٦١٩، ٢٤٣٥).

[63] انظر: سيرة ابن هشام(٢٧٢/٢)، وتاريخ الطبري(٥٥٦/١)، وسيرة ابن كثير(١٥٧/٢).

[64] التخفيف في الشريعة الإسلامية هو إحدى القواعد الخمس التي بُني عليها الفقه الإسلامي، وهي: الضرر يزال، والمشقة تجلب التيسير، واليقين لا يزول بالشك، وتحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم ونحو ذلك، والأمور تبع المقاصد. وانظر: أضواء البيان(٣٠١/٥) مع بعض التصرف.

أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ''[النساء:٦٦]؛ (فالله يعلم ضعف الإنسان، ويرحم هذا الضعف، ويعلم أنهم لو كُلِّفوا تكاليف شاقة ما أداها إلا قليل منهم، وهو لا يريد لهم العنت، ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق، ولهذا كان هذا المنهج الميسر الذي لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر)[٦٥]، فلا نُكَلَّف بما لا يُؤْمَنُ معه الزيغ[٦٦]، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ''لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا''[البقرة:٢٨٦]؛ أي طاقتها، وما تسعه قدرتها، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها[٦٧].

فالواقعية في المنهج – إذن – تقتضي عدم إهمال الواقع التكويني للبشر والواقع المحيط بهم، لأنَّ تطبيق وتنفيذ وتحقيق المنهج يتم في حياة البشر بجهد بشري[٦٨]، وإلاَّ لانقلب المنهج مثالياً لا صدى له في واقع الحياة، ومن هنا كانت خاصية التدرج والمرحلية من مُقتضيات الواقعية التي امتاز بها المنهج الإسلامي.

٤- **التدرج والمرحلية**؛ وهي خاصية تظهر في المسائل التشريعية المرتبطة بالعادات أو العرف أو القدرات التكوينية للبشر، أي الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، أمَّا فيما يخص العقيدة فليس فيها تدرج أو مرحلية؛ لأنَّ العقيدة إخبار عن حقيقة غير قابلة للنسخ أو النقض، ثمّ لأنها الحقيقة التي يُبنى عليها منهج الدين وتشريعاته.

وترتبط العادات والعرف بالتدرّج والمرحلية لأنَّ الإنسان لا ينسلخ بسهولة عمّا اعتاد عليه، فلا بدَّ من التدرج معه حتى ينسلخ عمّا كان قد اعتاده، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ''يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين''[٦٩]، وفي رواية أخرى: ''لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية''[٧٠]؛ فالمانع هو ما اعتادوه وما درجوا عليه، فلو هُدمت الكعبة لأدَّى ذلك لنفورهم، ولهذا المعنى وغيره كانت مراعاة الشرع للعرف والعادة.

ومعنى التدرج والمرحلية يتناسب مع معنى قوله تعالى: ''يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ''[البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ''وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ''[الحج:٧٨][٧١]؛ (فلا

---

[65] الظلال(٦٩٧) مع بعض التصرف.

[66] انظر: التفسير الكبير(١٥٦/٧).

[67] انظر: تفسير البغوي(٢٧٤/١)، وتفسير البيضاوي(٥٨٦/١).

[68] انظر: الظلال (٥٢٦، ٦٣٨).

[69] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها (٩٦٨/٢) رقم(١٣٣٣).

[70] سنن الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في كسر الكعبة (٢٢٤/٣) رقم(٨٧٥)، وقال أبو عيسى: ''هذا حديث حسن صحيح''.

[71] انظر: تفسير الثعالبي(٢٣٧/١).

واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة)[٧٢]. وممّا تقدم يظهر عمق الترابط بين خصائص المنهج جميعها، كما هو بيِّنٌ بَيْنَ خاصية الواقعية والتيسير وخاصية التدرج والمرحلية.

والشواهد على خاصية التدرج والمرحلية كثيرةٌ منها: قولُه صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: ''إنّك تأتي قوما أهل كتاب؛ فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنّ الله تبارك وتعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم''[٧٣]، وفي السياق ذاته يأتي قول رسول الله لعائشة رضي الله عنها: ''يا عائشة، لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: بابا شرقيا وبابا غربيا، فبلغت به أساس إبراهيم''[٧٤]؛ فمراعاة الواقع هو الذي حال دون هدم البيت وإعادته على أساس إبراهيم.

ويُعرف هذا التدرج في جانب التشريعات باستقراء مراحل التشريع الإسلامي وأسباب النزول وغير ذلك من المفردات الضرورية في عملية الاستقراء، كما هو ظاهر في مراحل تحريم الخمر، فأول ما نزل قوله تعالى: '' وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا''[النحل:١٦٧]، ثم قول تعالى: ''يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا''[البقرة:٢١٩]، ثم قوله تعالى: '' يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ''[النساء:٤٣]، ثم قوله تعالى: '' يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ''[المائدة:٩٠][٧٥].

إنَّ المرحلية ضرورة تستلزمها واقعية المنهج وجدِّيَّته، لأنَّ تحديد الغايات دون بيان الطريق المؤدي إليها عبثٌ وهزل، وما لا يتمُّ بلوغ الغاية إلاَّ به فهو ضرورة؛ فالمرحلية بهذا المعنى لا تُلغي الهدف النهائي بل تُعين على الوصول إليه، ولهذا كانت الأحكام المرحلية لمواجهة الحالات المتنوعة في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة، وهي التي تحدد عن طريق الاجتهاد أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف في زمان من الأزمنة في مكان

---

[72] تفسير السعدي(٢٨٩/١).

[73] سنن أبي داوود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة(٤٩٨/١) رقم(١٥٨٤)، وسنن النسائي، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة(٢/٥) رقم(٢٤٣٥)، وقال الألباني: صحيح، ومسند أحمد (٢٣٣/١) رقم(٢٠٧١)، وقال الأرنؤوط: صحيح على شرط الشيخين.

[74] صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها(٥٧٤/٢) رقم(١٥٠٩).

[75] وانظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس(١٤٧/١، ١٤٨).

من الأمكنة مع عدم نسيان الخط العام للمنهج، والمقصد الذي من أجله كان، وهذا يعني وجوب السعي الدائم في إزالة العوائق التي تحول دون عملية التحرر والتحرير، ويبقى في الأحكام المرحلية سَعة تتدرجُ معها البشرية أفراداً وجماعات حتى تنتهي إلى هدفها الأسمى في الحرية والتحرير والتحرر؛ فالأمر في حاجة إلى وعيٍ ومرونة وإدراك لطبيعة المنهج[٧٦].

الثابت والمتغير

والحديث عن الأحكام المرحلية والأحكام النهائية يرتبط بوجه من وجوهه بالحديث عن الثابت والمُتغير في الدّين كلِّه، والثابت يعنى الديمومة والاستمرار والملازمة والبقاء، وفي التنزيل الحكيم قولُه تعالى: ''وكُلاًّ نَقُصُّ عليك من أَنْباء الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ''[هود:١٢٠]، ومعنى تَثْبِيت الفُؤادِ تَسْكِينُه، ورجل ثَبْتُ المُقام لا يَبْرَحُ، ويُقال: ثَبَتَ فلانٌ في المكانِ إذا أَقامَ به، والمُثْبَتُ الذي ثَقُلَ فلم يَبْرَحِ الفِراش، وأَثْبَتُّه أَي حَبَسْتُه وجَعَلْتُه ثابتاً في مكانه لا يُفارقه، وقولٌ ثابتٌ أي صحيح[٧٧]، وفي التنزيل العزيز: ''يُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقول الثابت''[ابراهيم:٢٧]، أي الصحيح.

والمتغير يعني التَّحوّلَ والتبديل، وفي التنزيل الحكيم قولُه تعالى: ''إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ''[الرعد:١١]، وفيه قوله تعالى: ''ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ''[الأنفال:٥٣]، ويُقال: تغيَّر الشيءُ عن حاله تحوّل، وغَيَّرَه حَوَّله وبدّله، وقوله تعالى: ''حتى يُغَيِّروا'' معناه حتى يبدِّلوا، وغَيَّرَ عليه الأَمْرَ حَوَّله وتَغايرتِ الأَشياء اختلفت[٧٨].

ومسألة الثابت والمتغير مرتبطة بكون الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، وصلاحية الدّين تعني مواكبته للمتغيرات والمستجدات؛ وإذا سلمنا بأنّ الحكم الشرعي مركب من النَّص المجرد والظرف الذي نزل فيه، فهذا يعني أنّ النص الشرعي المجرد لا يُفهم حين عزله عن ظرفه؛ فالمُتغير هو الظرف وليست الأحكام الشرعية، وهذا يعني أنّ الظروف المختلفة لها أحكام مختلفة.

وكأننا نقول: إنّ الحكم الشرعي يدور مع العلة وجوداً وعدماً، ويبقى الاجتهاد في إدراك العلة وفهم الظرف؛ فالأحكام التي ترتبطُ بالظروف والملابسات، وتتأثر بالزمان والمكان في حركة دائمة مع حركة الظروف، ودلّ على ذلك قوله تعالى: '' لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا''[المائدة:٤٨]، ولذلك اختلفت شرائع الأنبياء في مسائل الفروع مع اتفاقهم في الأصول[٧٩]،

---

[76] انظر: ظلال(١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٩٢).

[77] انظر: لسان العرب، مادة: ثبت(١٩/٢)، وتاج العروس، باب: التاء، مادة: ثبت(١٠٦٦/١).

[78] انظر: لسان العرب، مادة: غير(٣٤/٥)، وتاج العروس، باب: الراء، مادة: غير(٣٣٢٦/١).

[79] انظر: تفسير القرطبي(٣٣٦/٨)، وتفسير ابن كثير(١٩٥/٣)، وانظر: فتح القدير(٤٨/٢)، وروح المعاني(٢١/٢٥).

لأنّ اختلاف الظروف يقتضي أحكاماً مناسبة لها، وذلك ما نفهمه من قوله صلى الله عليه وسلم: ''والأنبياء أولاد علات''[80]، و(معنى الحديث أنّ أصل دينهم واحد وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع)[81].

ولا يعني هذا إسقاط الثوابت لأنّ إسقاطها تمييع للفكرة الدينية برمتها وتحولها إلى مذهب عملي لا يرى الحل إلا بعد وجود المشكلة؛ فتصبح الحياة قيما وعقيدة متحركة لا ثبات فيها، وفي المقابل فإن إلغاء المتغير معناه الوقوف على هامش الحياة بلا فاعلية، ويفقد الدين – حينئذ – قدرته في إدارة الحياة والتكيف مع المتغير فيها.

٥- منهج قائم على منظومة متكاملة متناسقة من القيم، والقيم هي ما تُقَوَّم به – أو ما توزن به – الأفعال والأشخاص والأحداث والأشياء، وهي تُمثل القاعدة الأساسية للحياة الإنسانية التي يسعى الدّين لبنائها؛ فهي مجموعة من الموازين التي توزن بها كلُّ حركة في الحياة الجديدة التي ينشئها هذا الدّين، ومن ورائها أحكام شرعية تنضبط بتلك الموازين والقيم لتسيير حياة الناس؛ فالأحكام تخدم تلك القيم وتضمن تحقيقها في واقع الحياة، وتحمل في طيّاتها قيمة أو قيماً فرعية تخدم منظومة القيم الكُليّة، وهي – أي الأحكام – دليلٌ للتعرف على تلك القيم، فالخروج عن تلك الأحكام خروج عن القيم، لأنّ تحقيق القيم مرتبطٌ بتحقيق الأحكام، فلا وجود للقيم إن لم تكن تلك الأحكام منفذة في واقع الحياة، وبهذا تشمل القيم الدّين كلّه.

وأمّا القاعدة الأساسية لتلك القيم فهي معرفة الحق من الباطل، والخطأ من الصواب؛ فهي التي تحدد ما هو نافع وما هو ضار، وما هو مقبول وما هو مردود، وما هو خير وما هو شر، وما هو جائز وما هو غير جائز، وبها يتميز الخبيث من الطيب، وهي بمجموعها تمثل منظومة متكاملة شاملة لا تناقض بينها ولا تنافر، لأنَّها لا ترجع للتجربة البشرية القاصرة لتحدد ما هو صواب أو خطأ، وإنّما ترجع لحكم الله في كلّ مناحي الحياة، وبهذا ترتبط خاصية القيم مع خاصية ربّانية المنهج، وهي قيمٌ مطلقة نهائية لا تتغير ولا تتبدل، وليست قيماً نسبية تتغير مع متغيرات الناس وأهوائهم ومصالحهم كما هو حاصل في المناهج الوضعية؛ فما يُقَرَّرُ من القيم من قبل فريق من الناس في فترة من الزمان قابلٌ للتغيير أو التبديل منهم أو من غيرهم بسبب تبَدُّل المصالح أو الأشخاص الذين يقررون، أو لظهور أمور لم تكن ظاهرة للمشرعين من البشر، وهكذا تتبدل القيم في حركة مضطربة تنعكس على حياة الناس الذين يعيشون في ظلها بصور متعددة تماثل في حجمها وأثرها حجم المتغيرات القيمية.

والقيم في المنظومة الإسلامية لها أصول وفروع، أَمّا أُصولها فتدور حول قيم عليا أهمها:

---

[80] صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم(١٢٧٠/٣) رقم(٣٢٥٨).

[81] فتح الباري(٤٨٩/٦)، وانظر: عون المعبود(٢٨٢/١٢).

١- **الحرية والتحرير**، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ''لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ''[البقرة:٢٥٦]، و(في هذا المبدأ تتجلى قيمة تكريم الإنسان، وتقرير أخص خصائص التحرر الإنساني؛ فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته، والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق، أي نفي جنس الإكراه؛ فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته)[٨٢]، وفي السياق ذاته يأتي قولُه تعالى: ''وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ''[يونس:٩٩]، أي (لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل وبنى الأمر على الاختيار)[٨٣]، ولتحقيق هذا الاختيار الحرّ سعى الإسلام لإزالة جميع المؤثرات والمعوقات المعنوية والمادية – التي تحول دون حرية الاختيار – لأنَّ الإيمان لا يصح مع الإكراه[٨٤].

٢- **العدل والإنصاف**، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى: ''إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ''[النساء:٥٨]؛ فالعدل الواجب بين الناس كلهم، وليس بين المؤمنين، و(هذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض القليل من ذلك والكثير على القريب والبعيد والفاجر والولي والعدو)[٨٥]، وقوله تعالى: ''وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى''[المائدة:٨]، أي ولا تحملنّكم عداوة قوم على ترك العدل فيهم لعداوتهم[٨٦]، وجاء التخصيص بالعداوة لأنّ العدل مع من ظلمك وبغى عليك من أشق الحالات على النفس؛ فهذه دعوة للعدل بأعظم صوره، وتُمثّل قمة القيم الإنسانية، وفي الوقت ذاته تمثّل ابتلاءاً من الله عظيم لما فيها من مجاهدة للنفس، ونحو ذلك قوله تعالى: ''وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا''[المائدة:٢]، والأدلة على ذلك كثيرة، وصور العدل بين الناس حين حكم هذا الدّين لا حصر لها.

٣- **المساواة بين الناس**، وأهم دليل في هذا الباب قولُه تعالى: ''وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ''[الأنعام:٩٨]، وقوله تعالى: ''هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا''[الأعراف:١٨٩]؛ فكل الخلق خُلقوا من نفس واحدة[٨٧]، لا كما كان التصور الهابط من أنّ دماء الناس مُلونة، أو كما هو الحال من تصنيف الناس على أساس العرق أو السلالة أو القوم، وتتجلى هذه القيمة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرت به جنازة فقام؛ فقيل:

---

[82] الظلال(٢٩١) مع بعض التصرف، وانظر: تفسير القرطبي(٢٧٩/٣)، وقيل: (معناها الموادعة، وأن لا يكره أحد بالقتال على الدخول في الإسلام، ثم نسخت بالقتال، وهذا ضعيف لأنها مدنية) التسهيل(٩٠/١).

[83] الكشاف (٣٣١/١)، وانظر: فتح القدير(٢٧٥/١).

[84] انظر: المُصفى من علم الناسخ والمنسوخ(٣٩/١).

[85] تفسير السعدي(١٨٣/١)، وانظر: تفسير ابن كثير(٣١/٢).

[86] انظر: الدر المنثور(١١/٣)، وتفسير البغوي(١٨/٢).

[87] انظر: التفسير الكبير(١٣١/٩)، والكشاف(٤٩١/١).

إنّه يهودي. فقال: ''أليست نفسا''[88]، وهذه القيمة كثيراً ما جاءت في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قوله: ''لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى''[89].

ومن قيم المساواة تكريم بني آدم، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً''[الإسراء:٧٠]، أي كرمناهم جميعا، وهذا التكريم والتفضيل له مظاهر متعددة متنوعة[90]. ومن قيم المساواة حق الحياة لجميع الخلق، ودليل ذلك قوله تعالى: ''مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا''[المائدة:٣٢].

وأمَّا فروعها فتشمل كل تفاصيل الحياة البشرية، كالمعاملة مع الجار والإحسان إليه، والمعاملة مع الوالدين والأقربين، وقيم البيع والشراء بالتزام الصدق والوفاء وعدم الغش والكذب، ومعاملة الزوجة والزوج، واحترام الأموال العامة وقيم الطريق من غض البصر وإماطة الأذى ورد السلام، وحرمة ترويع الآمنين أو الاعتداء عليهم، وصون البيوت وتعظيم حرمتها، وهناك فروع أُخرى كثيرة أردت التنبيه على بعضها للدلالة على كثرتها وشمولها لكل مناحي الحياة.

٦- **منهج قائم على الأخذ بالأسباب طاعة لله**، ووفق سننه في خلقه جل شأنه، لأنَّ الأخذ بالأسباب قيامٌ بالتكليف، وهذا لا يتناقض مع حقيقة التوكل على الله، ومع الحقيقة المطلقة من أنَّ الأمر كلَّه بيد الله سبحانه؛ ولهذا كان التقاعس عن الأخذ بالأسباب تعطيلاً للمنهج، ودليلاً على سوء الفهم له، وتفسيراً لتأخر الجماعة وتخلفها عن الوصول لبُغْيَتِها، وفي المقابل كان الأخذ بالأسباب – بعد تحقيق التوكل على الله – تطبيقاً صحيحاً للمنهج، وكشفاً لسر النجاح الذي حققته الجماعة الأولى، والدليل على ذلك قولُه تعالى: ''هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ''[الملك:١٥]؛ أي هو الذي سخر لكم الأرض، وجعلها تسير وفق أسباب وقوانين ثابتة مستمرة ليُدرك الناس منها كل ما تعلقت به حاجتهم[91]؛ ثمَّ أمر بالأخذ بهذه الأسباب، وبَيَّنَ أنَّ الأخذ بالأسباب لا يجدي شيئاً إلاّ بتيسير من الله، ولهذا قال: ''وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ''، وبهذا تظهر العلاقة بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، وأنّه لا منافاة بينهما[92].

---

[88] صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة(٦٦١/٢) رقم(٩٦١).

[89] مسند أحمد، باقي مسند الأنصار (٤١١/٥) رقم(٢٣٥٣٦)، وقال الأرنؤوط: ''إسناده صحيح''، وانظر: مجمع الزوائد، كاتب الحج، باب الخطب في الحج(٥٨٦/٣) رقم(٥٦٢٢)، وقال الهيثمي: ''رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح''، وفي السلسلة الصحيحة رقم(٢٧٠٠).

[90] انظر: فتح القدير(٢٤٤/٣)، وروح المعاني(١١٧/١٥).

[91] انظر: تفسير السعدي(٨٧٧/١).

[92] انظر: تفسير ابن كثير(٣٩٨/٤-٣٩٩).

وكما أنَّ الأخذ بالأسباب يقتضي وجودها وإمكانية العمل بها؛ فإنَّه يقتضي شمولها لكل ما هو مطلوب، وهو معنى قوله تعالى: ''وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتْبَعَ سَبَبًا''[الكهف:٨٥]، و(السبب اسم لما يتوصل به إلى المقصود)[٩٣]، وهو كلّ شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور[٩٤]، والمعنى أنَّ الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها إلى ما يريد[٩٥]، وهذا يعني شمول الأسباب لكل ما يُراد الوصول إليه، وأمَّا قوله تعالى: ''فَأَتْبَعَ سَبَبًا''، فيعني أنَّ وجود الأسباب لا يغني شيئاً إذا لم يتم الأخذ بها، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً''[التوبة:٤٦]، أي لتأهبوا له ولأخذوا بأسبابه كالزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر[٩٦]؛ فذمهم الله لعدم أخذهم بأسباب الخروج مع توفر القدرة عليها.

والقول بشمول الأسباب لكل ما هو مقصود قاعدة مطلقة تشمل الدنيا والآخرة؛ فمن أراد النجاة في الآخرة والفوز بالجنة فعليه الأخذ بأسباب النجاح والفلاح، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا''[الإسراء:١٩]، أي عمل لها الأعمال التي بواسطتها يتوصل إلى المقصود من النجاة والفوز[٩٧]؛ لأنَّ ترتيب النتائج على المقدمات أمر واضح في كتاب الله حيث جعل الأعمال الصالحة سبباً في دخول الجنة، وجعل الأعمال السيئة سبباً في دخول النار، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ''وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ''[الأعراف:٤٣]، وقوله تعالى: ''وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ''[السجدة:١٤]، وقوله تعالى: ''وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ''[الزخرف:٧٢]، أي (بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم)[٩٨]؛ فالباء للسببية لا للمقابلة[٩٩]، وإنَّما وجب الحمل على هذا لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ''قاربوا وسددوا، واعلموا أنَّه لن ينجو أحد منكم بعمله''. قالوا: يا رسول الله، ولا أنت؟ قال: ''ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل''[١٠٠].

ونخلص إلى أنَّ بناء المنهج على الأخذ بالأسباب – واعتبار الأخذ بها طاعة لله وقربة له، وعدم الأخذ بها معصية لله ومخالفة لأمره – لا يُعدُّ قاعدة للتحرر والتحرير فحسب، بل يُعدُّ

---

[93] التعريفات (١٥٤/١).

[94] انظر: المصباح المنير، كتاب السين (٢٦٢/١).

[95] انظر: تفسير القرطبي(٤٨/١١)، والمفردات(٢٢٠/١).

[96] انظر: تفسير أبي السعود(٧٠/٤)، وتفسير ابن كثير(٣٦٢/٢)، وروح المعاني(١١١/١٠).

[97] انظر: التفسير الكبير(١٤٩/٢٠).

[98] تفسير ابن كثير(٢١٦/٢)، وانظر: تفسير القرطبي(٢٠٨/٧)، وتفسير النسفي(٢٥٥/٢).

[99] انظر: شرح النووي على مسلم(١٦١/١٧).

[100] صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى(٢١٦٩/٤) رقم(٢٨١٦).

قاعدة مُنشئة للإبداع الإنساني وتشييداً لصرح الحضارة الإنسانية، وأساساً للنهوض بتكليف الخلافة في الأرض التي أودع الله فيها من القوانين ما يُعين الإنسان على القيام بتلك الوظيفة مع ما وهبه الله للإنسان من الإمكانات الذاتية المُكافئة للقيام بذلك التكليف، ودلَّ على هذه المعاني قوله تعالى: ''هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا''[هود:٦١]، أي أراد منكم عمارتها، وأوجب عليكم ذلك[١٠١]، ولا تكون عمارتها إلاّ بالتمكين والقدرة والتهيئة، أي بتوفير كل ما هو ضروري للقيام بتلك الوظيفة، وهو معنى قوله تعالى: ''وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ''[الأعراف:١٠]، أي هيَّأناها لكم، وأقدرناكم على إعمارها واستغلالها والتصرف فيها[١٠٢].

٧- **منهج عبادة**، أي يقوم على أساس عبادة الله وحده لا شريك له؛ وأنَّ كلّ حركة يتحركها الإنسان في حياته – لا يُخالف فيها شرع الله، ويقصد فيها رضا الله – هي عبادة لله، ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: ''وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا''[١٠٣]، لأنّ العبادة تشمل (كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[١٠٤].

وكون المنهجِ منهجُ عبادة يُظْهِرُ الانسجام مع غاية الخلق التي أرادها الله سبحانه، كما بيَّنها في قوله: ''وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ''[الذاريات:٥٦]؛ أي لم يخلقهم إلاَّ للعبادة فهي الغاية التي من أجلها خُلقوا[١٠٥]، و(ليس المراد وقوع العبادة، بل الأمر بها)[١٠٦]، أي أمرهم بإفراده بالعبادة[١٠٧]، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ''اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا''[الطلاق:١٢]، كما أنَّ العبادة تُمثل الغاية التي لأجلها أُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ''وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ''[الأنبياء:٢٥]؛ فأخبر

---

[101] انظر: تفسير النسفي(١٦١/٢)، وأحكام القرآن للجصاص(٣٧٨/٤)، و(استعمركم: أي اتخذكم عمارا، كما تقول استكتب واستعمل) المحرر الوجيز(١٨٣/٣).

[102] انظر: تفسير أبي السعود(٢١٤/٣)، وتفسير البيضاوي(٧/٣)، وتفسير السعدي(٢٨٤/١).

[103] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/٢) رقم(١٠٠٦).

[104] مجموع الفتاوى(١٤٩/١٠)، وانظر: شرح قصيدة ابن القيم(٢٥٩/٢)، وتيسير العزيز الحميد(٣٠/١)، ومعارج القبول(٤٣٧/٢).

[105] انظر: الفوائد(١٢٢/١).

[106] غاية المرام(٦٩/١).

[107] انظر: عقيدة الفرقة الناجية(٨/١).

سبحانه أنَّ القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته، ويعبد وحده لا يشرك بـــه؛ فهـــذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر[١٠٨].

والعبادة بمعناها الشمولي تساوي معنى الحياة، إذ لولا تلك الغاية لشعر الإنـــسان بعبثيـــة الوجود؛ فهي التي تجعل الإنسان يحس بالطمأنينة، وتجعله – حينئذٍ – أقدر على الإنتاج والإبداع والعمل؛ فالفرق واضح بين إنسان يتحرك ويعمل مطمئناً وإنسان يتحرك قلقاً مضطرباً؛ فهي – أي العبادة – غاية ووسيلة، ومثال ذلك قوله تعالى: ''يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً''[المزمل:١-٦]؛ فوسيلة الإعداد للدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القـــرآن، وحيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليـــف فـــي حـــلاوة وبـــشاشة ويسر[١٠٩].

وينبثق من هذه الخاصية مفهومُ الإتباع؛ فمن شرط المعبود على العابد أن يعبده كما يشاء؛ فليس للعابد إلاّ أن يقول: سمعتُ وأطعتُ، وهو معنى قوله تعالى: ''إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُـــؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا''[النور:٥١]، وهذا يدلُّ على وجـــوب الامتثال والتسليم والانقياد والإتباع في الوسائل كما في الغايات والأهداف[١١٠]، أي وجوب التزام المنهج، وترَتَّبَ على هذا تَمَيُّز المنهج الإسلامي عن غيره من المناهج الوضعية بخاصية الثبات، وتجرده من المصالح والأهواء البشرية المُتقلبة، فدور المسلم هو التنفيذ والتطبيق مُهتدياً بهـــدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يُنَمِّي في نفس المسلم قِيَمَ التجرد من الهوى، فإنّما هو في هذه الدعوة أجير عند الله، ليس له من الأمر شيء، فالأمر كلُّه لله، ودليل ذلك قوله تعالى: ''قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ''[آل عمران:١٥٤]؛ فليس لأحد معه من الأمر شيء[١١١]، وفي المقابل فإنَّ الأجـــر الحاصل للعبد لا يرتبط بنتيجة عمله أو حركته، وإنّما مرتبط ببذل الجهد وفقاً للمنهج والإخلاص لله، وهو ما يملأُ النفس طمأنينة ورضا، ويجعلها أقدر على الاستمرار مهما كانت النتائج؛ فلأجر حاصلٌ بمعزل عن النتيجة، وكلُّ ذلك منبثق من مفهوم العبادة الشامل، وهو ما تعجز عن تحقيقه كلّ مناهج الوضعية، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ''وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ''[النساء:١٠٠]، أي (ومن يخرج من منزله بنيـــة

---

[108] انظر: الجواب الكافي(٨٩/١)، وشفاء العليل(٢٦٦/١)، وكلمة الإخلاص(١٥٢/١).

[109] م/ انظر: الظلال(١٤٢).

[110] انظر: السيل الجرار(٢٩٧/٤).

[111] انظر: مدارج السالكين(٢٥٥/٣)، وشفاء العليل(٢٧٣/١)، وإغاثة اللهفان(٢٢١/١).

الهجرة؛ فمات في أثناء الطريق؛ فقد حصل له عند الله ثواب)[112]، والشاهد أنّ الأجر قد حصل مع عدم تحقق الوصول إلى الهدف.

والخلاصة أنَّ التحرر والتحرير عبادةٌ وتكليف تتحقق بالتزامِ المنهجِ وعدم الخروج عنه لأنّ العبادة تعني الإتباع، وفي المقابل فإنّ المواجهة مع النّفس وترويضها تحتاج لطاقة كبيرة من الاحتمال والصبر، وهو ما تكفله العبادة بمفهومها الشامل، حيث تمد المسلم بطاقة هائلة تجعله الأقدر على المواصلة والاستمرار في معركة قد تطول وتكثر فيها التضحيات، لأنّ الأجر الموعود عظيم جداً، ومن ناحية أخرى تجعله مطمئناً على تحقيق النتيجة، لأنّ تطبيق المنهج الذي أراده الله يُفضي إلى موعود الله، والله لا يُخلف الميعاد.

٨- **منهج وقائيٌّ أي يقوم على الوقاية**، والوقاية فيه تقوم على منظومة من القيم والتشريعات تؤدي في محصلتها إلى منع الضرر المعنوي والمادي والدنيوي والأخروي، وذلك بتحصين الذات من الأمراض والإعاقات النفسية والعقلية والعاطفية والاجتماعية وما شابه ذلك ممّا تتعرض له الذات الإنسانية، وأساس تلك المنظومة القيمية والتشريعات هو الإيمان بالله واليوم الآخر ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما يتبع ذلك من إيمان بالجنّة والنار والحساب والصراط وغيرها من الأمور ممّا يقع تحت مسمّى العقيدة، ويقع في الاتجاه ذاته تهذيبُ النفس بالعبادات والأذكار والرياضة النفسية لترويض النفس على مكارم الأخلاق لتصبح هيئة ثابتة في النفس، والوقاية – بهذا المعنى الشمولي – مفهوم استباقي يُبنى على قيم وترتيبات وإجراءات وتشريعات تمنع حدوث الضرر، وهذا يعني أنّ المنهجَ موضوعٌ للمدى الطويل الذي لا يحيط الإنسان به علماً أو دراية.

وتظهر هذه الخاصية للمنهج باستقراء الأحكام الشرعية، ومثال ذلك النّهي عن القرب من الفواحش كما في قوله تعالى: ''وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ''[الأنعام:١٥١]، وقوله تعالى: ''وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً''[الإسراء:٣٢]؛ فهي دعوة لاجتناب المقدمات التي قد تؤدي إلى الوقوع المهالك، ولهذا مُنِعَ التبرج لقوله تعالى: ''وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى''[الأحزاب:٣٣]، ومُنِعَت الخلوة مع المرأة الأجنبية لقوله صلى الله عليه وسلم ''ألاَ لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان''[113]، والمعنى المقصود هو وجود تشريعات وقائية، وفي السياق ذاته يأتي الأمرُ بغض البصر كما في قوله تعالى: ''قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ

---

[112] تفسير ابن كثير(٥٤٤/١)، وانظر: تفسير البيضاوي(٢٤٤/٢).

[113] سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة(٤٦٥/٤) رقم(٢١٦٥)، وقال أبو عيسى: ''هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه''، وفي السلسلة الصحيحة رقم(٤٣٠)، وقوله صلى الله عليه وسلم: ''إلا كان ثالثهما الشيطان'' دليل على أنّ اجتناب الخلوة وقاية من الزنا، وفي رواية البخاري: ''لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم''[صحيح البخاري، كتاب النِّكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم والدخول على المغيبة(٢٠٠٥/٥) رقم(٤٩٣٥).

أَبْصَارِهِمْ''[النّور:٣٠]، وقوله: ''وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ''[النّور:٣١]، كإجراءات وقائية، ويتَّضحُ الأمر في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب للزواج لتحصين الفرج وغض البصر؛ فمن عجز عن الزواج كوسيلة وقائية فعليه بالصوم لأنّه له وقاية من فاحشة الزنا، وتتجلى طرق الوقاية من الفاحشة في قوله تعالى: ''وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ''[النساء:٢٥]، أي من لم يجد قدرة وغنى أنْ ينكح الحرائر، فليتزوج مما ملكت يمينه من الجواري؛ وإنّما يُباح ذلك النكاح لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا[114]؛ فالزواج من الإماء – إذن – وقاية يُدفعُ بها العنت، هناك إجراءات وقائية كثيرة يصعب حصرها، وأكتفي بما ذُكِرَ.

وقُلْ مثل ذلك في جريمة السرقة، حيث كانت التشريعات الوقائية كالأمر بالزكاة والصدقات والكفارات وغيرها لإشباع جوعة الفقراء، وفي المقابل تحريم كلّ ما من شأنه إثارة كوامن النفس لدى الفقراء كلبس الذهب للرجال والمفاخرة والمباهاة وغيرها؛ فإذا حصلت الجريمة بعد كل الإجراءات الوقائية – التي ذكرتُ طرفاً منها – كان العلاج كما في قوله تعالى: ''وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ''[المائدة:٣٨]، وهكذا الأمر في كلّ الأمراض التي يُراد اجتثاثها تكون الوقاية قبل العلاج؛ فالبحث في العلاج وحده لإنهاء الأمراض وهمٌ لا يُوصِل للنتيجة المُرادة، وهذا يعني أنّ عجز الإنسان عن الوقاية قد يُسقط العقوبة، ومثال ذلك ما حصل في عام الرمادة، ولذلك قالوا: (لو سرق اللص طعاما زمن القحط والغلاء الشديد ولم يقدر عليه لم يقطع رحمة بالناس، كما حصل في عام الرمادة في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب)[115].

ويظهر مفهوم الوقاية بشكل عام في قوله صلى الله عليه وسلم: ''فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى ألا وإنّ حمى الله محارمه''[116]، و(التمثيل للتنبيه؛ فالخائف من العقوبة يبعد عن الحمى خشية أن تقع مواشيه في شيء منه، فَبُعْدُه أسلم له)[117]، وهكذا تكون الوقاية من الحرام بِعَدَمِ التَّعَرُّضِ لمقدماته، وهذا ما تعنيه القاعدة المشهورة ''ما لا

---

[114] انظر: الوجيز للواحدي(٢٥٩/١)، ومختصر تفسير ابن كثير(٢٨٠/١).

[115] الفقه على المذاهب الأربعة(٨٠/٥).

[116] صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات(١٢١٩/٣) رقم(١٥٩٩).

[117] فتح الباري(١٢٨/١) مع بعض التصرف، وانظر: تحفة الأحوذي(٣٣٢/٤)، وعمدة القاري(٣٠٢/١).

يتم اجتناب المحرم إلا باجتنابه فهو محرم''[118]، ولهذا فإنّ التناسب بين الإجراءات الوقائية ووقوع الجريمة تناسبٌ عكسي؛ فكلما زادت الإجراءات الوقائية المناسبة واكتمل تطبيقها خفت الجريمة أو كادت تنعدم، وأمّا المجتمع الذي يأخذ بالعلاج وحده أو يُقصر في أسباب الوقاية، أو لا يهتدي إليها يقع في وهم كبير حين يسعى للقضاء على الجريمة أو تخفيف حدّتها، وهو ما نشاهده في الأنظمة الوضعية الحالية.

ويظهر المعنى الوقائي حتى في العقوبات؛ فالعقوبة وقاية للجاني من تكرار الجريمة والذنب، ويُشبه ذلك معالجة المريض، لأنّ ترك العلاج قد يؤدي إلى مضاعفات مرضية أخرى، وبهذا يكون العلاج وقاية من تلك المضاعفات، وحين التقصير في العلاج يستفحل الخطر، وتزداد الجرأة على اقتراف الذنوب. ومن جهة أخرى تكون العقوبة لغير المذنبين تنبيها لهم وتنفيراً وردعاً وحماية من وساوس النفس والشيطان، أو زيادة تحصين ومناعة، ويتضح هذا المعنى من خلال قوله تعالى: ''الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ''[النور:٢]؛ فمشاهدة العقوبة أمرٌ مقصود؛ فهي مشاهدة (تردع المحدود، ومن شهده وحضره يتعظ به ويزدجر لأجله، ويشيع حديثه فيعتبر به من بعده)[119].

وبالعودة إلى موضوع البحث، والمتعلق بالتحرير والتحرر؛ فالمسألة لا تتعدى كون الطاغوت مرضاً خطيراً تخضع مواجهتُه لقاعدة الوقاية ثمّ العلاج؛ فهناك – إذن – إجراءات وقائية وإجراءات علاجية لتحقيق التحرير والتحرر، وهي في مجملها إجراءات متناسبة ومتناغمة مع خصائص المنهج ومقوماته، وتُشبه تلك الإجراءات الحديث عن الأمراض، فهناك أمصالٌ تُعطى للوقاية من المرض، فإن حصل ووقع المرض كان العلاج، ومن الأمصال ما يكون وقائياً خالصاً، ومنها ما يكون علاجياً خالصاً، ومنها ما تتداخل فيه الوقاية والعلاج.

---

[118] الفروع(٦/٢٤٩)، وانظر: المبدع(٣/٤١٩)، ومطالب أولي النهى(٢/٦١٠).

[119] تفسير القرطبي(١٢/١٤٣)، وهناك معاني أخرى كالدعاء لهم بالرحمة والتوبة، ولا تناقض بين المعاني، وانظر: تفسير أبي السعود(٦/١٥٦).

الفصل الأول

حديث القرآن عن الطاغوت

المبحث الأول: القراءة التفسيرية لكلمة الطاغوت في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: أنواع الطواغيت.

المبحث الأول

القراءة التفسيرية لكلمة الطاغوت في القرآن الكريم

القراءة التفسيرية لكلمة الطاغوت تُعيننا على معرفة المنهج التفصيلي العملي وتحديد معالمه، كما تؤكد مذهبنا في تعريف الطاغوت، وقد ورد كلمة ''الطاغوت'' بهذا اللفظ في القرآن في ثمانية مواضع هي:

١- قوله تعالى: ''وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ''[الزمر:١٧]، والمراد بالطاغوت في هذا الموضع عبادة غير الله كالأوثان والشياطين[١٢٠]، والمعنى أعرضوا وتباعدوا عن عبادة الطاغوت، وخصوا عبادتهم بالله عز وجل، والمقصود هو اجتناب عبادة كل ما عبد من دون الله من شيء[١٢١]؛ فالذين جمعوا بين اجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله لهم البشرى على سبيل الحصر[١٢٢].

٢- وقوله تعالى: ''وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ''[النحل:٣٦]، أي تَبَاعَدُوا عن عبادة كل معبود سوى الله[١٢٣]؛ فالغاية الوحيدة من هذا البعث المتكرر عبر الزمن هي الأمر بعبادة الله وحده واجتناب كل ما يدعو إلى الضلالة، أو يصرف عن الهدى[١٢٤]؛ وهذا هو معنى لا إله إلا الله لأنها مركبة من نفي وإثبات لتحقيق التوحيد[١٢٥]، و(هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له)[١٢٦]، فمن جمع بين الأمرين فقد هُدي، ومن أتى بأحدهما فقد حقت عليه الضلالة.

ونجد المعنى ذاته مؤكداً في كثير من المواضع في التنزيل الحكيم، كقوله تعالى: ''وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ''[ص:٦٥]، حيث جمع النَّص الكريم بين النفي والإثبات، وهو المعنى الذي حملته الكلمة السواء التي دعا إليها القرآن بقوله تعالى: '' قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ''[آل عمران:٦٤]، وهو الأساس الذي بُنيت عليه دعوة جميع الرسل عليهم السلام، يقول الله تعالى: '' وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ''[الأنبياء:٢٥]، ويقول الله تعالى: '' وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا

---

[120] انظر: تفسير السعدي(٧٢١/١)، والتسهيل(١٩٣/٣)، والسمرقندي(١٧٣/٣).

[121] انظر: تفسير القرطبي(٢٤٣/١٥)، وتفسير البغوي(٦٨/٣)، وتفسير السعدي(٧٢١/١)، وفتح القدير(٤٥٦/٤).

[122] انظر: تفسير الطبري(٢٠٦/٢٣)، وتفسير ابن كثير(٤٩/٤)، وتفسير مجاهد(٥٥٧/٢)، ومعاني القرآن(١٦١/٦).

[123] انظر: أضواء البيان(٩٥/٧).

[124] انظر: تفسير أبي السعود (١١٣/٥)، وتفسير القرطبي(١٠٣/١٠)، وتفسير الواحدي(٦٠٦/١).

[125] انظر: أضواء البيان(٣٧٤/٢).

[126] تفسير ابن كثير(١٢٠/١).

أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ''[الزخرف:٤٥]؛ فجميع الرسل دعوا إلى ما دعا إليه صلى الله عليه وسلم من عبادة الله وحده لا شريك له[١٢٧]، وذلك هو إخلاص العبادة الذي أُمرنا به[١٢٨]، يقول الله تعالى: ''وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ''[البينة:٥]؛ فلا يتم الإخلاص والقبول إلاّ باجتماع عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت، ولهذا قال أهل الشرك حين عاينوا بأس الله وعذابه: ''آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ''[غافر:٨٤].

٣- وقوله تعالى: ''لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ''[البقرة:٢٥٦]، أي ومن خلع الأنداد – والند هو (كل ما عبد من دون الله، أو صد عن عبادة الله تعالى)[١٢٩] – فقد ثبت في أمره، وعقد لنفسه عقدا وثيقاً محكما في الدين[١٣٠]، وأضافت الآية الكريمة معنى آخر حين (قُدم ذكر الكفر بالطاغوت على ذكر الإيمان بالله تعالى اهتماما بوجوب التخلية)[١٣١].

و(مفهوم الشرط أنَّ من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الإيمان ومترد مع الهالكين، لأنَّ الإيمان بالطاغوت يستحيل اجتماعه مع الإيمان بالله، لأن الكفر بالطاغوت شرط في الإيمان بالله أو ركن منه)[١٣٢]، وفي الحديث''من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله''[١٣٣]، وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: '' إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال''[١٣٤]، والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: ''أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا''؛ فلا تنفع العبادة إلاّ إذا اقترنت بعدم الإشراك، وهو معنى اجتناب الطاغوت.

٤- وقوله تعالى: ''اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ''[البقرة:٢٥٧]. ونلاحظ (أنَّه أفرد النور وجمع الظلمات لأنَّ طريق الحق واحدة، وطريق

---

[127] انظر: تفسير ابن كثير(٤/١٣٠).

[128] انظر: تفسير الطبري(١٤/١٠٣).

[129] تفسير البيضاوي(١/٥٥٨)، وانظر: تفسير البغوي(١/٢٤٠).

[130] انظر: تفسير ابن كثير(١/٣١٢)، وتفسير الواحدي(١/١٨٤).

[131] روح المعاني(٣/١٣)، وانظر: تفسير أبي السعود(١/٢٥٠).

[132] أضواء البيان(١/٢٤٥و٧/٥٠) مع بعض التصرف.

[133] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام(١/٥٣)رقم(٢٣).

[134] صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل حاجة والنهي عن منع وهات(٣/١٣٤٠)رقم(١٧١٥).

الباطل متشعبة متعددة، ولهذا –أيضاً– وحد ولي المؤمنين وجمع أولياء الكفار لتعددهم)[135]، وفي هذا دليل على أنَّ الجامع بين أنواع الطاغوت وتعدد طرقهم هو الظلمة والضلال، وأنَّ وظيفة الطاغوت أياً كان نوعه – كما تقررها الجملة الخبرية– هي إخراج الناس من النور إلى الظلمات الحاجبة للأبصار عن الإدراك والفهم والوعي والعلم[136]، وأُسند فعل الإخراج إلى الطاغوت إمّا لكونه الفاعل مباشرة أو لكونه سببا[137]، وهذا دليل على ما قدمتُ في تعريف الطاغوت اصطلاحاً.

٥– وقوله تعالى: ''أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[138] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً''[النساء:٥١]، وهو إنكار على من أوتوا قسطاً وحظاً من كتاب الله[139]– أن يؤمنوا بالطاغوت، فكيف سيكون الإنكار على أمة أوتيت الكتاب – أي القرآن – وليس نصيبا من الكتاب؟[140].

وهناك معنى آخر في غاية الأهمية، فقد ذكر المفسرون سبب النزول، واختلفوا بالأشخاص الذين قاموا بهذا الفعل القبيح[141]، ومع هذا فقد جاء النص على ذكر الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، وليس على ذكر أولئك الذين باشروا هذا المنكر من علماء السوء وأحبار الضلال[142]، وهذا يعني أن مجرد السكوت من قبل الآخرين من أهل الكتاب في ذلك الزمن عدَّه القرآن مشاركة في الجريمة.

ودلَّ على عظم الجريمة المقترفة استعمال التركيب ''ألم ترَ إلى''، وذلك للتعجيب من سوء حالهم والتحذير من موالاتهم، لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت مبالغة

---

[135] الإتقان (٥٦٤/١) مع بعض التصرف، وانظر: تفسير ابن كثير(١٩٢/٢).

[136] انظر: تفسير الطبري (٢١/٣).

[137] انظر: تفسير البيضاوي (٥٥٨/١).

[138] هناك أقوال كثيرة في معنى الجبت؛ فقيل: (الجبت السحر، والطاغوت الشيطان. وقيل: الجبت الكاهن، والطاغوت الساحر، وبالجملة هما كل ما عبد وأطيع من دون الله) التسهيل(١٤٥/١)، وانظر: التفسير الكبير(١٠٣/١٠)، والمحرر الوجيز(٦٦/٢).

[139] انظر: تفسير الطبري (١٣٠/٥).

[140] يكون هذا المعنى صحيحاً إذا حُملت ''مِنْ'' على التبعيض، وحُمل التنكير في كلمة ''نصيباً'' على التحقير لا على التعظيم، وانظر: تفسير البيضاوي(٢١/٢).

[141] قال بعضهم: هم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد، وقال آخرون: هم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وقيل: هو رفاعة بن زيد، وقيل غير ذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. انظر: تفسير الطبري(١٣٣/٥)، والعجاب في بيان الأسباب(٦٧٢/٢)، وتفسير القرطبي(٢٤٢/٥)، وتفسير البيضاوي(٢٠٢/٢).

[142] انظر: روح المعاني(١١٩/٣).

في الكذب مما يحصل منه العجب[١٤٣]، وهو تركيب لا يأتي في القرآن إلاّ عند ذكر الأشياء العظيمة العجيبة[١٤٤].

٦- وقوله تعالى: ''أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا''[النساء:٦٠]؛ ويُفْهَم من قوله تعالى: ''وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ'' أنَّ التحاكم إلى الطاغوت إيمانٌ به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله؛ فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب[١٤٥]، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كان بمحض اختياره وإرادته، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ''يريدون''، وأمّا مَنْ كان مكرهاً غيرَ مستطيع – بأي صورة من صور الإكراه أو العجز – فلا تثريب عليه.

٧- وقوله تعالى: '' الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا''[النساء:٧٦]؛ فالطاغوت هنا هو الشيطان نفسه[١٤٦]، أو هو الشيطان باعتبار ما يؤول إليه قتالهم من الكفر والمعصية[١٤٧]، وهو الأرجح لأنَّ القسمة في الآية تقتضي أن يكون ما سوى الله طاغوتاً، ويشمل الشيطان وغير الشيطان[١٤٨]. كما أنَّ الجملة الخبرية المُتمثلة بقوله تعالى: ''الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ'' تعبير عن الحال الدائم للذين آمنوا؛ فهم لا يقاتلون إلاّ لهذا المقصد لا لغيره[١٤٩].

ويقرر النَّصُّ أنَّ كيد الطاغوت كان ضعيفاً (بحد ذاته لأنَّه غرور لا يؤول إلى محصول، فكيف بالقياس إلى نصر الله وتأييده، والكيد المقصود هو الوسوسة الشيطانية، والسعي في فساد

---

[143] انظر: روح المعاني(٥/٤٤)، وأضواء البيان(٣/٢٥٩).

[144] الملاحظ في الكتاب العزيز أنَّ التعبير ب''ألم تر كيف''، أو ''ألم تر إلى'' إنّما يأتي للتعجب من الشيء، ومن ذلك قوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ''[إبراهيم:٢٤]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا''[نوح:١٥]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ''[الفجر:٦]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ''[الفيل:١]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ''[البقرة:٢٤٣]، وقوله تعال:'' أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ''[إبراهيم:٢٨]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً''[الفرقان:٤٥]، وقوله تعالى:'' أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ''[غافر:٦٩]، وهكذا في كل المواضع التي جاء فيها هذا التركيب تدل على التعجب. يقول ابن منظور: (ألم تَرَ إلى فلان، أو ألم تَرَ إلى كذا، وهي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء، وعند تنبيه المخاطب)لسان العرب، مادة: رأي (١٤/٢٩٩).

[145] انظر: التفسير الكبير(١٠/١٢٤)، وتفسير السعدي(١/١٨٤).

[146] انظر: المحرر الوجيز(٢/٧٩).

[147] انظر: فتح القدير(١/٤٨٧)، وروح المعاني(٥/٨٤).

[148] انظر: التفسير الكبير(١٠/١٤٧).

[149] انظر: فتح القدير(١/٤٨٧).

الحال على جهة الاحتيال)[150]، وفي هذا التعبير الجامع بين الأمر بالقتال وبيان ضعف الشيطان تهييج للمؤمنين على القتال[151].

٨- وقوله تعالى: ''قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ''[المائدة:٦٠][152]، وفي هذا بيانٌ لشرار الخلق وأبعدهم عن رحمة الله، ومنهم أولئك الذين عبدوا الطاغوت، وهو (كل ما يُطغي مما سوى الله تعالى؛ فانقادوا إليه وخضعوا له)[153]، وهم بذلك قد جمعوا بين اللعنة والغضب والمسخ، لأنَّ عبادة الطاغوت مسخ للإستعدادات الفطرية وتعطيل للمعاني الإنسانية؛ فيصير العابد للطاغوت ممسوخاً[154] بتعطيله للفطرة وقتله للروح الإنسانية، و(التفضيل في الموضعين[155] للزيادة مطلقا، أو لكونهم أشر وأضل مما يشاركهم في أصل الضلال)[156].

بعد هذا العرض للمادة التفسيرية لا بد من تسجيل الملاحظات الآتية:

الأولى: الأوامر الواردة في الآيات موجهة إلى من عبد الطاغوت وخضع له وليس للطاغوت، لأنّ وجود الطاغوت وجودٌ قدري ليتم امتحان الناس، ودلّ على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ''[157]، والشاهد قوله: ''مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ''، ومثل ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ''[158]؛فالشيطان لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه[159].

---

[150] تفسير النسفي(٢٣٤/١) مع بعض التصرف، وانظر: روح المعاني(٨٤/٥).

[151] انظر: تفسير ابن كثير(٥٢٦/١).

[152] ''وعبد الطاغوت'' يقرأ (بفتح الباء ونصب التاء وبضم الباء وخفض التاء؛ فالحجة لمن فتح الباء أنه جعله فعلا ماضيا مردودا على قوله: ''من لعنه الله''، ومن عبد الطاغوت. والحجة لمن ضم الباء أنه جعله جمع عبد، وأضافه إلى الطاغوت. وعبد يجمع على ثمانية أوجه) الحجة في القراءات السبع (١٣٢/١-١٣٣). و(العَبْدُ ضد الحر، وجمعه عبيد وأعْبُد وعِباد وعُبدان بالضم والكسر. وعُبُد بضمتين مثل سَقْف وسُقُف، ومنه قرأ بعضهم ''وعُبُد الطاغوت'' بالإضافة، وقرأ بعضهم ''وعَبُد الطاغوت''، أي خدم الطاغوت، وأصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد التذليل والاستعباد. وعَبِدَ من باب طَرِبَ)مختار الصحاح، مادة: عبد(١٧٢/١)، وانظر: الكشاف(٦٨٦/١).

[153] روح المعاني(١٨٧/٦).

[154] انظر: التفسير الكبير(٣٢/١٢).

[155] أي قوله تعالى:'' أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ''.

[156] فتح القدير(٥٥/٢).

[157] صحيح مسلم، كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَاب تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا،(٤٢٨/١٣) رقم(٥٠٣٤).

[158] صحيح مسلم، كتاب السلام، بَاب بَيَانِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ رُئِيَ خَالِيًا بِامْرَأَةٍ وَكَانَتْ زَوْجَتَهُ أَوْ مَحْرَمًا لَهُ أَنْ يَقُولَ هَذِهِ فُلَانَةُ لِيَدْفَعَ ظَنَّ السُّوءِ بِهِ، (١٧١٢/٤) رقم(٢١٧٤).

الثانية: هي استعمال القرآن لفظ الاجتناب للدلالة على تحريم عبادة الطاغوت للمبالغة في الترك[١٦٠]؛ فهناك تناسب بين المنهي عنه ولفظ التحريم[١٦١]، ولهذا استخدم القرآن لفظ الاجتناب في الزجر عن عظائم الأمور المنهي عنها كعبادة الأوثان وقول الزور الذي هو من الكبائر، كما في قوله تعالى: ''فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ''[الحج:٣٠]، وهو اللفظ المُستخدم في النهي عن كبائر الذنوب والآثام، كما في قوله تعالى : ''إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا''[النساء:٣١]، وقوله تعالى: ''الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ''[النجم:٣٢]، وذلك لأنَّ عبادة الطاغوت ليست مجرد معصية، بل هي كفر وخروج من الملة؛ فالطغيان تجاوز الحد في العصيان[١٦٢].

الثالثة: هي اعتبارُ القرآن الكريم عبادةَ الطاغوت مسخاً للإنسانية؛ فلا سبيل – إذن – لتحقيق الكرامة الإنسانية إلاّ بالتحرر من الطاغوت.

---

159 انظر: شرح النووي على مسلم(١٤/١٥٧).

160 انظر: المفردات، كتاب: الجيم، مادة: جنب(١/٩٩).

161 ومثال ذلك قوله تعالى: ''وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا''[الإسراء:٣٢] حيث وصف الزنى بالفاحشة وسوء السبيل، بينما في قوله تعالى: ''وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا''[النساء:٢٢] أضاف كلمة ''مقتاً''، لأنّ الزنا في المحارم أفحش من غيره، يقول القرطبي: (عقب بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من القبح إلى الغاية). [تفسير القرطبي٥/١٠٤]، فالتناسب بين المُحَرَّم ولفظ التحريم ظاهر في التنزيل الحكيم، فانظر كيف أنّه لم يُحرم الزنا بل حرّم القرب منه، وفي هذا مبالغة في تحريم الزنا.

177 انظر: المصباح المنير، مادة: طغا(٢/٣٧٤).

المبحث الثاني

أنواع الطواغيت

والدليل على أنَّ الطاغوت أنواع قولُه تعالى: ''وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ''[البقرة:٢٥٧]؛ لأنَّ (لفظة الطاغوت في هذه الآية تقتضي أنه اسم جنس، ولذلك قال: ''أولياؤهم'' بالجمع إذ هي أنواع)[١٦٣]، وإذا تجاوزنا الصورة الظاهرة لعبادة غير الله، والتزمنا تحقيق الشرطين المذكورين آنفاً[١٦٤]؛ فإنّنا نجد أنَّ المعبود من دون الله يتوزع على أنواع ثلاثة:

الأول: شياطين[١٦٥] **الجنِّ**، والدليل على ذلك آياتٌ كثيرة منها: قوله تعالى: ''الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا''[النساء:٧٦]، وقوله تعالى: '' أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ''[الكهف:٥٠]، وقوله تعالى: ''أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ''[يس:٦٠]، وقوله تعالى حكاية لقول إبراهيم لأبيه: ''يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا''[مريم:٤٤]، وقوله تعالى: ''أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا''[النساء:٦٠]؛ فجعل التحاكم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاكماً إلى الشيطان[١٦٦] بدليل قوله: ''وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا''.

وعبادة الشيطان طاعته[١٦٧]كما هو الحال في عبادة الأصنام، يقول تعالى: ''وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً''[الأنعام:٧٤][١٦٨]؛ فالأصنام تمثل الصورة الظاهرة للطاغوت، أمّا الطاغوت الذي يُمثل الصورة الباطنة فهو الشيطان؛ (فعبادة الأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسولها ويغريه عليها)[١٦٩]، و(من أطاع شيئا في معصية فقد عبده)[١٧٠]، ودليل ذلك قوله تعالى: ''أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ''[يس:٦٠].

---

[163] المحرر الوجيز(١/٣٤٥).

[164] وهما: أن يكون الموصوف معبودا من دون الله وليس عابداً، وأن لا يكون المعبود منزوع الإرادة، ويظهر هذا إمّا بكونه سببا في تلك العبادة، أو أن يُعبد برضاه.

[165] ''والشياطين جمع شيطان، وهو كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب، واشتقاقه من شطن إذا بعد، وقيل: من شاط إذا هلك'' التبيان في تفسير غريب القرآن(١/٥٨)، وانظر: كتاب حجج القرآن(١/١٧).

[166] انظر: الكشاف(١/٥٥٧).

[167] انظر: زاد المسير(٧/٢٩)، وتفسير البغوي(٤/١٦).

[168] وهو نفس المعنى الذي ذكره القرآن في جواب قوم إبراهيم حين سألهم: ''مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ''[الشعراء:٧٠-٧١].

[169] روح المعاني(١٦/٩٧) مع بعض التصرف، وانظر: فتح القدير(٣/٣٣٦)، والكشاف(١/٦٨٦).

[170] تفسير القرطبي(١١/١١١)، وانظر: تفسير الجلالين(١/٤٠٠)، ومعاني القرآن(٤/٣٣٤)، وذكر الرازي محمد بن أبي بكر أنَّ العبادة تعني الطاعة، وانظر: مختار الصحاح، باب: العين، مادة: عبد(١/١٧٢)

ويجوز أن تكون عبادة الشيطان إشارة إلى كل ما يطاع من دون الله عز وجل كائنا ما كان لكونه الآمر بها[171]؛ فيدخل في ذلك هوى النفس ومصالحها الآنية؛ فتكون الأصنام صورة ظاهرة تُخفي وراءها المصالح المُرتبطة بتلك الطقوس؛ فإن قيل: إنَّ القرآن الكريم أَسندَ الإضلال للأصنام كما في قوله تعالى: ''رب إنهن أضللن كثيرا من الناس''[إبراهيم:٣٦]، فلأنه لما حصل الطغيان عند الاتصال بهذه الأشياء جُعِلت هذه الأشياء أسبابا للطغيان متابعة لظاهر الأمر على سبيل المجاز، لا على وجه الحقيقة، لأنها مجردة من الإرادة[172].

وبناء على ما تقدم يكون الشيطان طاغوتاً لكونه مُطاعاً من دون الله، أو آمرا بتلك العبادة، أو للسببين معاً، وقد جاءت نصوص كثيرة تُسند إلى الشيطان سبب الانحراف والضلالة، وهو ما يُسمِّيه الشرع بوسوسة الشيطان، ومن تلك النصوص قوله تعالى: ''الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ''[البقرة:٢٦٨]، وقوله تعالى: ''إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ''[آل عمران:١٧٥]، وقوله تعالى: ''يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاّ غُرُورًا''[النساء:١٢٠]، وقوله تعالى: ''وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ''[الأنعام:٤٣]، وقوله تعالى: ''وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ''[الأعراف:٢٠٠]، وقوله تعالى: ''إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ''[محمد:٢٥]، وهي نصوص تُسند الفعل للشيطان، ولا يُسند الفعل لمنزوع الإرادة، وبهذا يجتمع الشرطان اللازمان في وصف الطاغوت؛ فالشيطان معبود لكونه مطاع من دون الله، ثمَّ هو غير منزوع الإرادة لكونه راضٍ بتلك العبادة، أو لكونه سببا فيها.

والشيطان – لعنه الله – بهذا الوصف الشرعي ليس رمزاً للشر، بل هو مخلوق حقيقي يُمارس الإغواء، كما هو واضح في قوله تعالى: ''يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ''[الأعراف:٢٧]، وأمّا الجهل بتفاصيل الكيفية التي يُمارسُ بها الشيطان إغواءه لا تستلزم عدم وجود الإغواء من قِبَلِهِ بعد أن ثبت ذلك بالدليل، والمهم هو معرفة كيفية مدافعة تلك الوساوس، وسدّ مداخل الشيطان، وهو ما أرشد إليه الشرع في كثير من نصوصه، وأرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في هديه؛ ومع ذلك فقد وردت بعض الإشارات حول كيفية الإغواء سواء في القرآن أو السنّة، ومنها قولُه صلى الله عليه وسلم: ''إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مجرى الدم''[173]، فالحديث الشريف يُشير إلى كيفية مُحتملة، فالأخذ بظاهر الحديث يعني (أنّ الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في مجاري دم الإنسان، والاحتمال الآخر هو الاستعارة

---

171 انظر: روح المعاني(٦٤/٢٣).

172 انظر: التفسير الكبير(١٥/٧ و٢٢٥/٢٦).

173 صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه(٧١٧/٢) رقم(١٩٣٤).

لكثرة إغوائه ووسوسته، فكأنّه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه)[١٧٤]، وأياً ما كانت الكيفية فالمهم هو كيفية دفع الشيطان، ومعرفة وسائل مواجهته.

الثاني: شياطين الإنس، ويلحق بشياطينِ الجنِّ شياطينُ الإنسِ لكونهم مطاعين من دون الله برضاهم، أو لكونهم سببا في تلك العبادة، أو لسببين معاً، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا''[الأنعام:١١٢]، أي مردة الإنس والجنّ[١٧٥]، وقوله تعالى: ''الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ''[الناس:٥-٦]،، وقوله تعالى: ''وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ''[١٧٦][الأنعام:١٢١]، وهم مردة الإنس الذين أغروا كفار قريش بهذا المنطق؛ فقالوا لهم: أتأكلون ما قتلتم – أي ذبحتم – ولا تأكلون ما قتل الله؟ والشاهد هو أنَّ الله سمّى مردة الإنس شياطين[١٧٧].

ودلّ على وجود هذا النوع من الطواغيت تحريمُ اتخاذ الأرباب من دون الله، كما هو واضحٌ في قوله تعالى: ''قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ''[آل عمران:٦٤]؛ فاتخاذ الأرباب هو طاعتهم فيما أمروا به من معصية الله، وترك ما نهوا عنه من طاعة الله[١٧٨]، وقدْ صرَّح القرآن الكريم بكفر من اتخذ الأرباب من دون الله[١٧٩]في قوله تعالى: ''وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ''[آل عمران:٨٠]، وفي هذا دليل على أنَّ عبادة الطاغوت أو الدعوة إليها في أي صورة من صور العبادة ليست مجرد معصية بل كفر مُخرج من الملة[١٨٠].

---

[174] شرح النووي على مسلم(١٥٧/١٤) مع بعض التصرف، وانظر: شرح السيوطي على مسلم(١٩٣/٥).

[175] انظر: تفسير الجلالين(١٨٢/١).

[176] ''وجائز أن يكون الموحون شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم، وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس، وجائز أن يكون الجنسان كلاهما تعاونا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ''وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا''[الأنعام:١١٢]، بل ذلك الأغلب من تأويله عندي'' تفسير الطبري(٢٠/٨).

[177] انظر: تفسير الثعالبي(٥٥٥/١).

[178] انظر: تفسير الطبري(٣٠٤/٣).

[179] انظر: فتاوى ابن تيمية(٤٢٤/١٥).

[180] انظر: تفسير ابن كثير(٣٧٨/١)، ودقائق التفسير(٣٣٣/١).

الثالث: هوى النّفس المجرد عن هدى الله[181]، ودليل ذلك قولُه تعالى: ''أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ''[الفرقان:٤٣]، أي (أطاع هواه فيما يأتي ويذر؛ فهو عابد هواه، وجاعله إلهه)[182]، وقولُه تعالى: '' أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ''[الجاثية:٢٣]؛ فالمعبود هو الهوى[183]، وهو ما تميل إليه النفس، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه؛ فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط، ولما كان الغالب من موافق الهوى الإفراط وغلبته على قلبه أطلق ذم الهوى لعموم الغلبة[184]، فإذا تفاقم الإفراط وازدادت الغلبة صار الهوى طاغوتاً يُعبدُ من دون الله كما هو ظاهر قوله تعالى: ''أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ''[الفرقان:٤٣]، ولهذا العموم (سمِّي الهوى بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية)[185].

وإذا تتبعنا النصوص الواردة في اتباع الهوى وجدناها تعبر عن حالة كفرية وخروج من الدين، وهذا يُؤكِدُ أنَّ الهوى حالة طاغوتية وليست حالة معصية؛ فقد عدَّ القرآن اتباع الهوى سببا في فقدان نصرة الله وولايته، يقول تعالى: ''وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ''[البقرة:١٢٠]، وعدَّه ظلماً مُخرجاً من الملة، يقول تعالى: ''وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ''[البقرة:١٤٥]، وهو سبب في تكذيب الأنبياء وقتلهم، يقول تعالى: ''لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ''[المائدة:٧٠]، والهوى قرين الضلالة والانحراف عن منهج الله، يقول تعالى: ''وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ''[المائدة:٧٧]، ومثل ذلك قوله تعالى: ''قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ''[الأنعام:٥٦]، وقوله تعالى: ''وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ''[ص:٢٦]، وهو قرين للتكذيب بآيات الله وعدم الإيمان بالآخرة كما هو واضحٌ في قوله تعالى: ''وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ''[الأنعام:١٥٠]، وهو حالة غفلة عن ذكر الله كما في قوله تعالى: ''وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ

---

[181] أي الهوى المذموم، ودليل ذلك قوله تعالى: ''وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنْ اللَّهِ''[القصص:٥٠]، (لأنّ تقييد الإتباع ''بغير هدىً من الله'' للاحتراز عما يكون فيه هدىً منه تعالى؛ فإن الإنسان قد يتبع هواه ويوافق الحق) روح المعاني (٩٣/٢٠) مع بعض التصرف، وانظر: تفسير القرطبي(٢٩٥/١٣)، وهو ما يفيده ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: ''لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به''. جامع العلوم والحكم(٣٨٦/١)رقم(٤١)، قال ابن رجب الحنبلي: ''حديث حسن صحيح''.

[182] تفسير النسفي(١٧٠/٣)، وانظر: تفسير الثعالبي(١٣٦/٣)، ومعاني القرآن(٢٩/٥).

[183] و(أصل الكلام: هواه إلهه، كما تقول: اتخذ الصنم معبودا، لكن قدم المفعول الثاني على الأول للعناية) البرهان في علوم القرآن(٢٧٧/٣).

[184] انظر: ذم الهوى(١٦/١)، والتبيان في تفسير غريب القرآن(٣٧٧/١)، لسان العرب، مادة: هوا (٣٧٤/١٥).

[185] المفردات، كتاب: الهاء، مادة: هوى(٥٤٨/١) مع بعض التصرف، وانظر: تفسير القرطبي(١٦٧/١٦).

أَمْرُهُ فُرُطًا''[الكهف:٢٨]، والهوى مانع من الاستجابة للرسل الكرام، يقول تعالى: ''فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ''[القصص:٥٠]، والهوى ملازم للقول الباطل؛ فلا يقول الحق من استرقه الهوى[١٨٦]، ومن تحرر من الهوى نطق بالحق، وهو المعنى المُستفاد من قوله تعالى: ''وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى''[النجم:٣]، ولهذا كان كلامه صلى الله عليه وسلم حقاً.

وكما أنَّ الهوى حالة طاغوتية مُخرجة من الدين، فهو حالة مَرَضيةٌ تورث الفساد والخلل في الكون والحياة، ودلّ على ذلك قولُه تعالى: '' وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ''[المؤمنون:٧١]؛ فلا تعود صالحة للإنتفاع بها، والهوى حالةٌ بُعْدٍ عن العدل لقوله تعالى: ''فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا''[النساء:١٣٥]، لأنّ اتباع الهوى يؤدي لكراهة العدل المُستلزم للظلم والجوْر[١٨٧]، والهوى صدود عن الآخرة يُورث التردي والتعرض للهلاك[١٨٨] لقوله تعالى: ''فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى''[طه:١٦]، والآيات في توضيح هذا المعنى كثيرة نختمها بقوله تعالى: ''وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ''[الأعراف:١٧٦]؛ فاتباع الهوى حالة مُزرية تشبه حالة أخس البهائم في أخس أحواله[١٨٩]، وهو وصفٌ لأشد دركات الانحطاط والهبوط، وكفى بهذا تنفير عن الهوى.

الهوى حالة طاغوتية تُفرزها شهوات النفس المُتضخمة

والمقصود بشهوات النفس هو كل ما تحبه النفس وترغب فيه[١٩٠]، أو هو نزوعُ النفس إلى محبوب لا تتمالك عنه؛ فتتحرك النفس طلبا له[١٩١]، سواء كان المرغوب فيه حسياً كالجِماعِ أو معنوياً كالجاه والسُّمعة[١٩٢]، ولا تصبح الشهوة إلهاً حتى تتضخم إلى الحد التي تُعبد فيه من دون الله، وهي الحالة التي عبَّر عنها القرآن بالهوى، وسُمِّي بالطاغوت الأكبر[١٩٣]، وهو تعبير عن الحالة التي تتضخم فيها الغريزة أو الشهوة إلى الحد الذي تُعبد فيه من دون الله بأي صورة من

---

186 انظر: الرسالة المستطرفة(١/٢٢٠).

187 انظر: معاني القرآن(٢/٢١٣).

188 انظر: المفردات، كتاب: الراء، مادة: ردأ(١/٥٤٧).

189 انظر: الوجيز للواحدي(١/٤٢١)، وتفسير أبي السعود(٣/٢٩٣).

190 انظر: لسان العرب، مادة: شها(١٤/٤٤٥)

191 انظر: التعاريف(١/٤٤٠-٤٤١)، والتعريفات(١/١٧٠).

192 انظر: فيض القدير(٢/١٣٨).

193 انظر: تفسير السمعاني(٤/٢١).

صور العبادة[194]؛ فينقلب الإنسان – حينئذ – إلى عبد مطيع لتلك الشهوات[195]، والأدلة على خطورة الشهوات كثيرة منها: قوله صلى الله عليه وسلم: ''إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى''[196]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ''واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء''[197].

نماذج طاغوتية

ومن النماذج التي ذكرها القرآن لأشد حالات التضخم الذاتي هي حالة فرعون، وهي حالة مركبة، فهو من جهة يَعْبُدُ غرائزه وشهواته، ومن جهة أخرى معبود، يَعْبُدُه مِنَ النَّاس مَنْ أطاعه؛ فهو حين يقول: ''أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى''[النّازعات:٢٤]، ويقول: ''مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي''[القصص:٣٨]، ويقول لموسى عليه السلام: ''لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ''[الشعراء:٢٩]، فهو – حينئذ – يعبِّرُ عن مكنوناته النفسية برؤيته لنفسه إلهاً يستحق العبادة[198]، بل وذهب فرعون حداً تَصَوَّر فيه أنه يملك قلوب الناس، وأنكر على السحرة إيمانهم بموسى عليه السلام، وقال مُوَبِّخاً[199] لهم: ''آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ''[الأعراف:١٢٣]؛ فالنّاس – حسب تصوره – بحاجة للإذن قبل الإيمان.

ومن نماذج تضخم الذات نموذج النمرود حين أَبْطَرَهُ الملكُ، وأورثه الكبر والعتو، وحمله على التكذيب والمحاجة''[200]، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ''أَلَمْ تَرَ[201] إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي

---

[194] ومعنى هذا القول أنَّ الحالات التي هي دون ذلك تُعَدُّ معصية لله، وفرق كبير بين المعصية وبين الكفر المُتمثل بعبادة غير الله.

[195] كما ورد في حديث: ''يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم. أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله ''، والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: ''قبلتهم نساؤهم''، وهو تعبير عن معنى العبادة؛ فكأنه يعبد امرأته. كشف الخفاء(٥٤١/٢) رقم(٣٢٧٠)، وانظر: الفردوس بمأثور الخطاب(٤٤٤/٥) رقم(٨٦٨٨)، وكنز العمال الإصدار، رقم(٣١١٨٦)، والحديث رواه السلمي عن علي رضي الله تعالى عنه.

[196] قال الهيثمي: ''رواه أحمد والبزار والطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح، لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو علي بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن''، وانظر: مجمع الزوائد، كتاب العلم، باب في البدع والأهواء(٤٤٦/١) رقم(٨٩١).

[197] صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة فقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة(٢٠٩٨/٤) رقم(٢٧٤٢).

[198] ولا يعني هذا أن فرعون كان يدعي الخلق والتصرف في الكون، فهو وغيره ممن عاصره يدركون أنّ الكون كان قبل أن يولد فرعون، ولكنه أراد أنّه الحاكم المطلق الذي لا راد لحكمه، وهو بهذا الوصف إله يُعْبَدُ من دون الله.

[199] انظر: تفسير القرطبي(٢٦٠/٧)، وفتح القدير(٣٧٦/٣)

[200] انظر: تفسير البيضاوي(٥٥٩/١)، وفتح القدير(٢٧٧/١).

[201] هذا تعجيب من الله تعالى، و(كذلك تفعل العرب إذا أرادت التعجيب من رجل في بعض ما أنكرت من فعله) تفسير الطبري(٢٣/٣).

رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ''[البقرة:٢٥٨]؛ فالنمرود يحاجج في وجود رب إبراهيم، وينكرُ أن يكون ثَمَّ إله غيره، وما حمله على هذا الطغيان والشعور بالتضخم إلا تجبره وطول مدته في الملك[٢٠٢].

وهناك نموذج قارون، وهو نموذج الاستغناء عن الله تعالى بسبب التضخم الناتج عن الثروة الهائلة التي تمتع بها قارون، يقول تعالى: ''وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ[٢٠٣] أُولِي الْقُوَّةِ''[القصص:٧٦]، وظهر هذا التضخم المُعبَر عنه بالاستغناء في جواب قارون لقومه حين نصحوه بعدم البطر والفساد، كما نصحوه بالإحسان، وردّ النعمة لصاحب النعمة، وذلك معنى قولهم له: ''لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ''[القصص:٧٦-٧٧]؛ فأجابهم بقوله: ''إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي''[القصص:٧٨]، أي(فضلت به على الناس، واستوجبت به التفوق عليهم)[٢٠٤]، مُظهرا بذلك حالة التضخم الذاتي بالاستغناء والتَّفوُّق.

عوامل التّضخم في شهوات النفس

التَّضَخمُ في غرائز النفس إلى الحد التي تُصبح فيه إلهاً يُعبد من دون الله ليس ناتجاً عن وسوسة الشياطين وحدها، بل هناك عامل آخر بيَّنه القرآن، وهو النَّفس الأمّارة بالسوء[٢٠٥]، ودليل ذلك قوله تعالى: ''إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ''[يوسف:٥٣]، ولهذا أسند القرآن إلى تلك النفس كثيرا من الأعمال السيئة كما في قوله تعالى: ''فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ''[المائدة:٢٠]، وقوله تعالى: ''تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ''[المائدة:٨٠]، وقوله تعالى: ''بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا''[يوسف:١٨]، وقوله تعالى: ''إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ''[الرعد:١١]، وقوله تعالى: ''فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي''[طه:٩٦]، وأنت تلحظ أنَّ جميع النصوص المُتقدمة

---

[202] انظر: تفسير ابن كثير(٣١٤/١).

[203] أي(تُميلُهم من ثِقَلِها؛ فإذا أدخلت الباء قلت: تَنوءُ بهم) لسان العرب، مادة: نوأ ،(١٧٤/١).

[204] تفسير أبي السعود(٢٥/٧).

[205] وكما أنَّ القرآن ذكر النفس الأمَّارة بالسوء ذكر النفس اللوامة، يقول تعالى: ''ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ''[القيامة:٢]، وذكر كذلك النفس المطمئنة، يقول تعالى: ''يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ''[الفجر:٢٧]، و''النفس الأمارة هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر بالشهوات، والنفس اللوامة هي التي كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت تلوم نفسها، والنفس المطمئنة هي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وذلك بتحررها من الشهوات'' التعريفات(٣١٢/١) مع بعض التصرف، وانظر: التعاريف(٧٠٦/١).

أسندت الفعل للنفس، وهو ما عبَّر عنه الحديث الشريف بحديث النفس، أي وسوستها[٢٠٦]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: ''إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا، أو يعملوا به''[٢٠٧].

وبناء على ما تقدم يُمكنني أن أقسم العوامل التي تؤدي إلى تَضَخُّمِ الغرائز إلى نوعين:

الأول: ويتمثل بوسوسة شياطين الإنس والجن.

الثاني: ويتمثل في النَّفس الأمارة بالسوء.

العلاقة بين الشيطان وشهوات النفس

والعلاقة بين الشياطين وشهوات النفس البشرية ظاهرةٌ جليةٌ تتمثَّلُ في كون الشهوات مدخلاً للشياطين إلى النفس البشرية، والأدلة على ذلك كثيرة، وأَبْيَنُها ما جاء في قصة آدم عليه السلام؛ إذ يقول الله تعالى: ''فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى''[طه :١٢٠]، ألا ترى كيف حرَّك الشيطان كوامن النفس وميولها نحو الخلود والملكيَّة، وهو المعنى ذاته المُستفاد من قوله تعالى: '' فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ''[الأعراف:٢٠]، (وسواء كان الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد، وهما أقوى شهوتين في الإنسان، أو بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود؛ فكلا الأمرين تهواه النفس وتميل إليه، وبهذا المدخل استطاع اللعين إغواء آدم عليه السلام تحت تأثير الشهوة والغريزة)[٢٠٨]؛ فدور الشيطان تزيين السيئات للنفس.

وتظهر العلاقة بين الشهوات وبين الشيطان باعتبارها مدخلاً له في قوله تعالى: ''وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا''[الإسراء:٦٤]؛ فالأموال والأولاد من أقوى الشهوات التي تميل إليها النفس؛ ولهذا كانت المشاركة فيهما، وكل ما أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة[٢٠٩]، والمشاركة التي تُشير إليها الآية الكريمة هي مشاركة عامة في كل معصية يصنعها الناس بالمال، وفي كل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي[٢١٠]،

---

206 انظر: تفسير القرطبي(١٧٧/٧)، وفتح الباري(٣٩٢/٩).

207 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر(١١٦/١) رقم(١٢٧).

208 الظلال(١٢٦٩) مع بعض التصرف، وانظر: روح المعاني(٢٧٣/١٦-٢٧٤)، ويؤيد هذا الرأي ما قاله أبو السعود: (وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة) تفسير أبي السعود(٢٢٠/٣).

209 انظر: تفسير ابن كثير(٥١/٣).

210 انظر: المحرر الوجيز(٤٧٠/٣).

ويشهد لهذا قوله تعالى: ''إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ''[التغابن:١٥]، ولا يكون الامتحان والاختبار إلاّ فيما يشق على النفس[٢١١].

وخلاصة القول في حقيقة الطاغوت أنّه تضخمٌ في شهوات النفس لتصبح مُسيرةً، ولا يكون هذا التضخم إلاّ بعوامله وأسبابه، وهي إمّا شيطان الجن أو الأنس، وإمّا النفس الأمارة بالسوء، وهذا يعني أنّ القضاء على الطاغوت، ومن ثمّ التحرر منه لا يكون إلاّ بالسيطرة على شهوات النفس، وذلك لا يكون إلاّ بأمرين هما: الوقاية والعلاج، وسآتي على تفصيل ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وعليه فإنّ تقسيم الطاغوت إلى طاغوت داخلي وخارجي هو تقسيم تنقصه الدقة، والصواب هو أنّ حقيقة الطاغوت تكمن في الداخل، أمّا ما يُعبرُ عنه بالطاغوت الخارجي فهو صورة مركبة؛ أصلها شخصية تعبدُ شهواتها فتُعَبِّرُ عن تلك العبادة بقهر الناس على ما تريد وتشتهي؛ فقول فرعون – مثلاً – ''يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي''[القصص:٣٨]، شكل من أشكال عبادته لشهواته في حب الظهور والتفوق، وهو في المقابل طاغوت خارجي بالنسبة لمن يقهرهم على عبادته؛ فمن أطاعه من الناس مُختاراً فهو عابدٌ لشهواته في حب التزلف لمن في يده القوة، ومن عصاه فقد تحرر من شهواته في صورة عملية ظاهرها عدم طاعة فرعون.

ومن هنا فإنّ فرعون بالنسبة للناس فتنة؛ فمن تبعه فقد حقق ما يَشتهي، وهو بذلك يعبد شهواته لا فرعون، ومن خالفه فقد ركب ما تكرهه النفس، وحبس نفسه عن شهواتها، وتلك هي حقيقة الصبر[٢١٢]، وهو بذلك تحرر من طاغوت شهواته، وأمّا فرعون ففي كلا الحالتين صورة تعبيرية عن معركة النفس، تنتهي إمّا بالتحرر من شهواتها أو الخضوع لها.

وعليه فإنّ إسقاط الطاغوت الخارجي – سواء كان شيطاناً أو إنساً – لا يكون إلاّ بالسيطرة على الشهوات وطرق التعبير عنها، وهذا يعني حتماً التخلص من الطاغوت الداخلي وهو أساس التحرر والتحرير، وهو ما يُعبرُ عنه بالتجرد من هوى النفس، وأعني به تخلص النفس من حظ ذاتها سواء كان حظاً معنوياً أو مادياً، وهي قمة التحرر.

وعليه فإنّ طاغوت الإنس طاغوتٌ مركب؛ فهو من جهة عابدٌ لشهواته وللشيطان، ومن جهة أخرى معبود لكونه يرضى أو يُجبر الناس على التوجه له بالعبادة على أي صورة من صورها[٢١٣]، فهو – أي طاغوت الإنس – التجسيد الوحيد للمعنى المادي الطاغوت؛ لأنّ

---

[211] قال الشوكاني: (أي بلاء واختبار ومحنة يحملونكم على كسب الحرام، ومنع حق الله؛ فلا تطيعوهم في معصية الله) فتح القدير(٥/٣٣٥).

[212] انظر: حادي الأرواح(١٢٧)، والتعاريف(٤٤٧).

[213] إنَّ قول فرعون للناس: ''أنا ربكم الأعلى''[النازعات:٢٤]، يُمثل صورة فرعون المعبود، أمّا فرعون العابد فهي صورته وهو يعبد هواه وشهواته.

الطاغوت يُقسم إلى قسمين هما: مادي محسوس ويتمثل في طاغوت الإنس، ومعنويٌ غير محسوس ويتمثل بهوى النفس والشيطان.

ونخلص من خلال ما تقدم إلى أنّ منهج القرآن الكريم في تحرير الإنسان من الطاغوت يبدأ من الداخل، ثمّ ينطلق به نحو التحرر الخارجي؛ وهذا يعني أنَّ المعركة مع الطاغوت لها طرفان: الأول: ذاتي وميدانه النفس، والثاني: موضوعي وميدانه واقع الحياة، ويتمثل بإبعاد كل ما يثير تلك الشهوات ويحركها؛ فإسقاط الطاغوت الداخلي هو الطرف الأهم، والمعركة داخل النفس (أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، كما أن هذه الرواسب والعقبات النفسية أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية، والتي ما تزال مرصودة لها في الجاهليات القديمة والحديثة)[٢١٤].

والعلاقة بين التحرر الداخلي والتحرر الخارجي علاقة تراتبية، وليست علاقة مرحلية تنتهي مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى، وبيان ذلك هو أنّ التحرر الخارجي يُبنى على التحرر الداخلي وليس العكس، وكلما كان التحرر الداخلي كاملاً أو قريبا من الكمال كان التحرر الخارجي أسهل على النفس وأقرب إلى التحقيق، والمثال الأكمل في التحرر الداخلي هو إمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، ودلّ على هذا سيرته صلى الله عليه وسلم وهديه، ويكفي في هذا المقام دلالة قولُه صلى الله عليه وسلم: ''ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم؛ فلا يأمرني إلا بخير''[٢١٥]، والمعنى أَسْلَمُ أنا من شره وفتنته، أو أَسْلَمَ من الإسلام، أي صار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير[٢١٦]، وعلى كلا المعنيين فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم متحرر من الشيطان على صفة الكمال.

وأمّا بخصوص التحرر من شهوات النفس فكماله صلى الله عليه وسلم ظاهر من خلال حديث عائشة رضي الله عنها حين قالت: ''ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تنتهك محارم الله؛ فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك غضبا''[٢١٧]، فهو لا ينتصر ولا ينتقم لنفسه قط، وهذا منه صلى الله عليه وسلم غاية التجرد من شهوات النفس.

---

[214] الظلال(٣٦٩٢) مع بعض التصرف.

[215] صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأنَ مع كل إنسان قرين(٢١٦٧/٤) رقم(٢٨١٤).

[216] انظر: شرح النووي على مسلم(١٥٧/١٧)، وشرح السيوطي على مسلم(١٦٧/٦).

[217] مسند الحميدي(١٢٥/١) رقم(٢٥٨)، وانظر: مسند أحمد(٢٣٢/٦) رقم(١٥٩٩٨)، وقال الأرنؤوط: ''إسناده صحيح على شرط الشيخين''، ومسند أبي يعلى(٣٣٩/٧) رقم(٤٣٧٥)، وقال حسين سليم أسد: ''إسناده صحيح''.

ومجاهدة النفس في كفاحها للقرب من كمال التحرر من الشيطان وهوى النفس مستمرة ما استمرت حياة الإنسان، ودلّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ''ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم؛ فلا يأمرني إلا بخير''[٢١٨]، فالرسول صلى الله عليه وسلم حالة خاصة تُمثل القدوة الحسنة في أعلى مراتبها، أمّا باقي الناس فهم يتعرضون لوسوسة القرين؛ فهم في حالة مدافعة مستمرة.

[218] صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأنَ مع كل إنسان قرين(٤/٢١٦٧) رقم(٢٨١٤).

الفصل الثاني

قاعدة التحرر والتحرير

المبحث الأول: التوحيد.

المبحث الثاني: العلاقة بين التوحيد والتحرر من الطاغوت.

مقدمة الفصل

الإسلام هو: تصور للكون والإنسان والحياة تنبثق منه وتُبنى عليه منظومةٌ قيمية ومنظومة تشريعية، والمعنى أنّ الأساس هو العقيدة وهي ما يعبرُ عنه بالتوحيد، فالتوحيد أساس الدّين كله؛ فهو – إذن – أساسٌ لكل شيء، وعليه فإنّ التحرير والتحرر من الطاغوت يُبنى قطعاً على أساس التوحيد الذي يُعالج مسألتين خطيرتين لازمتين لعملية التحرر والتحرير من الطاغوت هما: دفع الشبهات، وكبح الشهوات.

الشبهات

أمّا الشبهات فهي على نوعين هما: شبهة يُراد منها التشكيك في العقيدة وخصوصاً الربوبية والنبوة، والثانية: شبهة تزيين الباطل، وكلاهما دواؤها العلم ووضوح الحجة والبرهان، والعلمُ هو ما بُنيت عليه عقيدة التوحيد؛ فالظنّ لا يغني من الحق شيئاً، ولذا حشد القرآن كل البراهين والأدلة القاطعة والحجج الساطعة لتثبيت حقيقتين هما: الربوبية، أي أنّ الله هو الخالق لهذا الكون والمُتصرف فيه، والثانية: أنّ محمداً صلى الله عليه وسلمَ نبياً مرسلاً من الله، ودلّلَ على هذا بما أيده به من المعجزات على رأسها وفي مقدمتها القرآن الكريم، وتحدى العرب مرة بعد مرة أن يأتوا ولو بمثل سورة من القرآن؛ فعجزوا عن ذلك وهم أصحاب البلاغة والفصاحى، فمن جاء بعدهم أعجز.

وأتبع القرآن بيان الحقِّ ببيان الباطل وزيفه، وفنّد كلّ ما ادعوه حجةً أو برهاناً، وبيّن أنّه لا يعدو عن كونه ظنّاً لا رصيد له، ودلّ على ما ذهبتُ إليه قولُه تعالى: ''وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ''[الأنعام:٥٥]، (والمنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب. إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً)[٢١٩]، فتزداد الحجة وضوحاً والبرهان سطوعاً.

ولمزيد من الحجة والبرهان أرشد القرآنُ الناس لقواعد العلم والمعرفة وطرق الاستدلال والاستنباط والنظر ليستعينوا بها على معرفة الحق من الباطل، ومن ذلك قوله تعالى: ''قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ''[النمل: ٦٤]، وقوله تعالى: ''وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا''[الإسراء: ٣٦]، وقوله تعالى: ''قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ''[الأنعام:١٤٨- ١٤٩].

وما حكاه القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام بأسلوب باهر قاهر، وهو قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ

---

[219] م/ ظلال القرآن (٥١/٣).

مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ''[الأنعام:٧٤- ٧٩]، وتعدى ذلك لحوارهم في حيثيات كثيرة بأساليب متنوعة تقوم كلها على العقل والمنطق لا على التخمين والظنّ.

وتظهر خطورة الشبهات من خلال النصوص الكثيرة التي أشارت لهذه المسألة، منها قوله تعالى: ''وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ''[الحج:٥٢]، وقوله تعالى: ''وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ''[الأنعام:١٢١]؛ والشبهة التي ألقاها الشيطان إلى أوليائه هي: إنكم تزعمون أن الله حرم عليكم الميتة وأحل لكم ما تذبحون أنتم بأيديكم، وحرم عليكم ما ذبح هو لكم؟ وكيف هذا وأنتم تعبدونه[٢٢٠]! والأمثلة على هذا كثيرة.

ومن وساوس الشيطان ما أشار إليه الحديث: ''لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ''[٢٢١]، والشبهة في الحديث ظاهرةٌ، ومنها ما ورد في الحديث: ''مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ''[٢٢٢].

ولأنّ الشبهات خطيرة نهض القرآن بمهمة البيان في منهجٍ متكاملٍ يقوم على ركنين هما:

الأول: بيان عقيدة التوحيد كقاعدة عامة للإجابة على كل تساؤلٍ فطري.

الثاني: مواجهة الجزئيات المُثارة هنا وهناك المبنية في أصولها على ما حُسم من التوحيد، أي هناك أدلة عامة كليةٌ تدور عليها عقيدة التوحيد، وهناك أدلة فرعية لمواجهة الشبهات الفرعية الثانوية، وهي أدلة مرتبطة بأساسها مبنيةٌ عليه، ومن هنا نفهم العلاقة الوطيدة بين التوحيد وبين التحرر من الطاغوت بإغلاق أحد أهم أبوابه وهي الشبهات.

الشهوات

أمّا الشهوات فالحديث عن التحرر منها لا يعني إلغاءها؛ فالشهوات والغرائز حقائق بشرية موجودة مع وجود الإنسان على الأرض، وإنّما ينصب الحديث على منع تضخمها، وإبقاء تلك

---

[220] انظر: تفسير الطبري (٣٢٥/٥).

[221] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١١٩/١) رقم(١٣٤).

[222] سنن أبي داوود، كتاب الملاحم، باب خُرُوجِ الدَّجَّال (١٩٧/٤) رقم(٤٣٢١)، وصححه الألباني.

الشهوات في مستوى طبيعي كمحرك للحياة، أي أنّ المنهج القرآن يتحرك في قضية التحرر من الشهوات – كمدخل للطاغوت إذا تضخمت – بين طرفين هما: تجنب الكبت، ومنع الإفراط.

ولبيان ذلك أضربُ مثلاً شهوة حب الأولاد[٢٢٣]؛ فوجودُ الأولاد في حياة الفرد محركٌ له في سعيه وكسبه؛ فهو يرى فيهم امتداداً لوجوده، وغريزة البقاء من أقوى الغرائز؛ فمنع الإنسان من تحقيق هذه الغريزة تعطيل وشلل لحركته في الحياة؛ فالمُراد – إذن – هو إيجاد طريقة للتعبير تضمن أمرين معاً، هما: التعبير عن الشهوة، وضمان عدم طغيانها، لهذا كان التحذير في القرآن مُنصباً لا على عدم الإنجاب بل على عدم الافتتان بالأولاد، ودل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ''تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ''[٢٢٤]، وقوله تعالى: ''يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ''[التغابن:١٤]؛ فبعض الأولاد قد يكون عدواً حين تندفع عواطف الأبوة بلا انضباط.

---

[223] كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ اللَّهُ: ''إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ''؛ فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا'' وقَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ[سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب مناقب الحسن و الحسين عليهما السلام (٦٥٨/٥) رقم(٣٧٧٤)].

[224] سنن أبي داوود، كتاب النكاح، باب النَّهْيِ عَنْ تَزْوِيجِ مَنْ لَمْ يَلِدْ مِنْ النِّسَاءِ،(٦٢٥/١) رقم(٢٠٥٠)، وصححه الألباني.

المبحث الأول

التوحيد

تعريف التوحيد

والتوحيد لغة: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والحكم بأنّ الشيء واحد، والعلم بأنَّه واحد، ويُطلق على اعتقاد أنَّ الشيء واحد متفرد[٢٢٥]، ويُقال: الله الواحِدُ الأَحَدُ ذو الوحدانية والتوحُّدِ، والفرق بينهما: أَنّ الأَحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، والواحد اسم بني لِمُفْتَتَح العدد؛ فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأَحد منفرد بالمعنى، فإِنّه لا يوصف شيء بالأَحدية غيره، لأَن أَحداً صفة من صفات الله عز وجل التي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء[٢٢٦]، والتوحيد يعني أن لا تتوهمه، وأنّ كل ما أدركته فهو – جلّ شأنه – غيره[٢٢٧].

والتوحيد اصطلاحاً: هو إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به، ونفيه عن غيره، فلا يتحقق التوحيد بشكل عام إلاّ بالنفي والإثبات، وهو بهذا المعنى حقيقة بسيطة تدور على إفراد الله تعالى بالعبودية، ونفيها عن كل ما سواه؛ فالتوحيد هو الدّين كلّه، لأنّ الدين أمران: كفرٌ بالطاغوت، وإيمان بالله.

وقسّمه بعض أهل العلم إلى ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والملك والتدبير.

الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بما سمى الله به نفسه ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإثبات ما أثبته من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، وعلموا ذلك بالتتبع والإستقراء والنظر في الآيات والأحاديث[٢٢٨].

وقسّمه آخرون من أهل العلم إلى نوعين[٢٢٩] هما:

---

[225] انظر: التعريفات(٩٦/١)، ومذكرة التوحيد(١/١)، ومفاهيم إسلامية(١٠٢/١).

[226] انظر: لسان العرب، مادة: وحد(٤٤٦/٣)، وتاج العروس، باب الدال المهملة، مادة: وحد(٢٣٢٤/١)، والقاموس المحيط، باب الدال، فصل الواو(٤١٤/١).

[227] انظر: مفردات القرآن، كتاب الباء(١٢١/١).

[228] انظر: فتاوى مهمة(٤، ٨، ١٠)، ومؤلفات ابن عبد الوهاب(١٥١)، ومعارج القبول(٤٥٩/٢)، ومفاهيم إسلامية(١٠٢/١)، م/ وحاشية الأصول الثلاثة(١٤٨/١).

[229] (الأول هو التوحيد العلمي، والثاني هو التوحيد العملي، ولا يكون المسلم مسلما إلا بهما) العقائد الإسلامية لابن باديس(٦٥).

أولاً: التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز و جل، وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات[٢٣٠]، ويتضمن هذا النوع توحيد الله بأفعاله، أي الاعتقاد الجازم بأنّ الله سبحانه وتعالى وحده خالق كل شيء ومليكه، والنافذ فيه أمره، وأنّه بيده النفع والضر، وأنّه المحيي والمميت والرزاق ذو القوة المتين، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له، ولا مماثل، ولا سمي، ولا منازع له في شيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته، وهو إقرار يستلزم توحيد الأُلوهية[٢٣١]، يقول تعالى: ''أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ''[الأعراف:٥٤]، وهذا يعني أنّ لله وحده الخلق كلّه، والأمر كلّه، فالإقرار بربوبيته ملازم للإقرار بألوهيته[٢٣٢]؛ فهو الرب المعبود وحده لا شريك له[٢٣٣].

وتوحيد المعرفة والإثبات يشمل توحيد الأسماء والصفات، أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل أو تمثيل أو تكييف أو تحريف، لقوله تعالى: ''لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ''[الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ''وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ''[النحل:٦٠]، وهذا النوع من التوحيد يعني الإقرار بأنّ الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا التوحيد يقتضي الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والألوهية[٢٣٤]، يقول تعالى: ''وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ''[الأعراف:١٨٠]، أي له الصفات العلى؛ فكل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وسمّيت بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنّها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله، وليس للعبد أن يدعو الله إلاّ بالأسماء الحسنى الدالة على صفات الجلال والكمال[٢٣٥]، ومن أيقن بهذه الصفات الجليلة لزمه اليقين بقدرة الله على الخلق والإحياء والإماتة، ولزمه التوجّه له وحده بالعبادة، لأنّه المستحق لها لا غيره ممّن لا يتصف بتلك الصفات الجليلة العظيمة، وهذا المعنى مُستفاد من قوله تعالى: ''أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ''[النحل:١٧].

---

[230] انظر: معارج القبول(٩٨/١).

[231] انظر: تيسير العزيز الحميد(١٧/١).

[232] انظر: تفسير الثعالبي(٢٣/٢)، وروح المعاني(١٠٧/٢٣).

[233] انظر: تفسير السعدي(٢٩١/١)، وتفسير السمعاني(١٨٩/٢).

[234] انظر: تيسير العزيز الحميد(١٩/١).

[235] انظر: تفسير القرطبي(٣٢٦/٧)، وتفسير السمرقندي(٥٨٢/١)، وتفسير السعدي(٣٠٩/١)، والتفسير الكبير(١٠٢/١).

والبراهين التي ساقها القرآن على هذا النوع من التوحيد لا يأتي عليها العد، منها قوله تعالى: ''أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ''[الطور:٣٥]، وقوله تعالى: ''اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ''[الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ''قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ''[يونس:٣١]، وقوله تعالى: ''قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ''[المؤمنون:٨٤-٨٩]، وهكذا ساق القرآن من الشواهد والدلائل ما لا يأتي عليه الحصر.

ثانياً: التوحيد الطلبي القصدي الإرادي، وهو توحيد الأُلوهية، أي إفراد الله بأفعال العباد من قول أو فعل ظاهر أو باطن، فلا يُعبد إلا الله سبحانه وتعالى[٢٣٦]، ويقال له توحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة، لأنه المستحق لأن يعبد لا سواه، أي هو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يُعبد وحده لا شريك له، ومن أشرك فقد حبط عمله، ومن العبادات المحبة لقوله تعالى: ''وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ''[البقرة:١٦٥]، والتوكل عليه وحده لقوله تعالى: ''وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ''[المائدة:٢٣]، و(خوف السر، أي أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله)[٢٣٧]، يقول الله تعالى: ''وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ''[النحل:٥١]، ويقول تعالى:''وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ''[الأنعام:١٧]، وغير ذلك كالرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات، والدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله سواء كان طلبا للشفاعة أو غيرها من المطالب، والذبح والنذر والطواف والتوبة والاستعانة والاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله[٢٣٨].

ولأنّ التوحيد أساس الدّين فإنّ (كل سورة في القرآن متضمنة لمعنى التوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فالقرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا ويكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء أهل توحيده، وإما

---

[236] انظر: معارج القبول(١/٩٨).

[237] تيسير العزيز الحميد(١/٢٤).

[238] انظر: تيسير العزيز الحميد(١/٢٤-٢٦).

خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)[٢٣٩].

وهذه الأنواع من التوحيد متلازمة، لا ينفك قسم منها عن الآخر، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية هو مقتضى توحيد الربوبية، وكذلك توحيد الأسماء والصفات، والى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة: ''يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ''[البقرة:٢١]، فالنّاس مأمورون بعبادة من خلقهم؛ فهو وحده الذي يستحق العبادة، فالإله الحق هو الرب الحق، والإله الباطل هو الرب الباطل، ولا يستحق العبادة والتأليه إلا من كان ربا، ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر، فهذا مرتب على ذلك[٢٤٠]، كما قال تعالى: ''رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا''[مريم:٦٥]؛ فالآية جمعت بين الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ورتبت العبادة على الربوبية، لأنّ ''الفاء'' في قوله تعالى: ''فاعبده واصطبر لعبادته'' لترتيب ما بعدها على ما قبلها من كونه تعالى الخالق والمدبر والحاكم في هذا الكون والمتصرف فيه، ثمّ بَيَّنَت أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل في العلو والعظمة والكمال[٢٤١]، وهو المعنى المُستفاد من قوله تعالى: '' أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ''[النمل:٢٥]؛ فالذي يُخرج النبات وما استتر هو الذي يستحق أن يُسجد له[٢٤٢].

وعلى ضوء ما تقدم نفهم قوله تعالى: ''وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا''[آل عمران:٨٠]؛ فقال: ''أرباباً'' ولم يقل آلهة، لأنّ من اتخذ شيئاً رباً فقد اتخذه إلهاً، من هنا ندرك أنّ اعتراف كفار مكة بأنّ الله هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء لم يكُن توحيداً للربوبية، كما هو ظاهر قوله تعالى: ''قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ''[الأنعام:١٦٤]؛ فرب كلّ شيء هو إلهه[٢٤٣]، ولمّا اتخذوا آلهة غير الله وصفهم باتخاذ الأرباب بدلاً من اتخاذ الآلهة لإظهار هذا المعنى، ومثل ذلك يُقال في قوله تعالى حكاية لقول

---

[239] شرح قصيدة ابن القيم(٢/٢٥٩-٢٦٠) مع بعض التصرف، وانظر: تيسير العزيز الحميد(١/٢٣)، ومعارج القبول(١/٩٨).

[240] انظر: العقائد الإسلامية لابن باديس(٦٧).

[241] انظر: أضواء البيان(٣/٣٦٨)، والمحرر الوجيز(٤/٢٥)، وتفسير أبي السعود(٥/٢٧٤)، وتفسير ابن كثير(٣/١٣٢).

[242] انظر: غريب القرآن للسجستاني(٢١١).

[243] (الربوبية والألوهية يجتمعان في المعنى عند الإفراد ويفترقان عند الاجتماع)[مؤلفات ابن عبد الوهاب(١٧)]، ومثاله الفقير والمسكين نوعان في قوله: ''إنما الصدقات للفقراء والمساكين''[التوبة:٦٠]، ونوع واحد في قوله: ''افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم''[صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، وقول الله تعالى: ''وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة''(٢/٥٠٥) رقم(١٣٣١).

الكافرين يوم القيامة: ''تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ''[الشعراء:٩٧-٩٨]، أي نجعلكم سواء في استحقاق العبادة، لأنّ رب العالمين هو إله العالمين، ولو كان إقرارهم بالربوبية يعني توحيداً لما سوّوهم برب العالمين.

إنّ الإقرار بالربوبية حجةٌ مُلزمةٌ لمن أقرّ بها[٢٤٤]؛ فإنّه إذا علم بالعقل أنّ له رباً أوجده، فكيف يليق به أنْ يعبد غيره؟[٢٤٥] ولذلك يجب التفريق بين الإقرار بالربوبية وتوحيد الربوبية، لأنّه لو لم يكن هناك تلازمٌ بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لكان إقرارهم بالربوبية كافياً لهم، وهو ليس كذلك، ولبيان ذلك تأمّل قوله تعالى: ''وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ''[العنكبوت:٦١]، وقوله تعالى: ''وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ''[العنكبوت:٦٣]، أي لا يعقلون ما يقولون، لأنّ قولهم يدلُّ على بطلان شركهم، فهم أقرُّوا بما هو حجة عليهم حين نسبوا النعمة إلى الله، وقد جعلوا العبادة لغيره[٢٤٦].

ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ''وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ''[لقمان:٢٥]، والآيات بنحو هذا كثيرة جدا، والاستفهام في الآيات تقريري يراد منه توبيخهم، لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة[٢٤٧]، ولمّا لم يقروا بالألوهية كان إقرارهم بربوبيته ليس توحيداً ولا إيماناً لتركهم مستلزمات ذلك الإقرار، وبيان ذلك في قوله تعالى: ''وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ''[الزمر:٣٨]، فالإقرار بالربوبية لو كان توحيداً لاقتضى توحيد الألوهية وترك ما يدعون من دون الله، لأنّ الإقرار بالخلق يعني حتماً أنّ من خلق يملك الضر والنفع، ولهذا كان سؤالهم تقريرياً للتوبيخ ليس إلاّ، ونحو ذلك قوله تعالى: ''وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ''[الزخرف:٨٧]، أي كيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الألوهية مع إقرارهم بتفرده تعالى في خلقهم[٢٤٨]، ولذلك قال الله تعالى: ''وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ''[يوسف:١٠٦]، أي يعلمون ويعرفون أنّ الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون به[٢٤٩]، فكان إيمانهم هو مجرد الإقرار[٢٥٠]، أو (هو إيمان لغوي لا شرعي، لأنّ من

---

244 انظر: رفع الشبهة والغرر(٦٧/١).

245 انظر: شرح العقيدة الطحاوية(٢٤٠/١).

246 انظر: الكشاف(٤٦٧/٣)، وتفسير البغوي(٤٧٤/٣)، وروح المعاني(١٢/٢١)، وزاد المسير(٢٨٣/٦)، ومؤلفات ابن عبد الوهاب(١٢١)، وكشف الشبهات(٨، ١٠).

247 انظر: أضواء البيان(٢١/٣).

248 انظر: التسهيل(١١٩/٣)، والكشاف(٤٦٧/٣)، وتفسير أبي السعود(٤٦/٧).

249 انظر: تفسير الطبري(٣١٢/٧)، وفتح القدير(٨٤/٣).

يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان الشرعي، أمّا الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق؛ فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً)[٢٥١].

والربوبية لا يماري فيها البشر[٢٥٢]، ولهذا جعل القرآن الكريم الإقرار بالربوبية حجة مُلزمة للإقرار بالألوهية، وبرهاناً على استحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وبيان ذلك قولُه تعالى: ''أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ''[النمل:٦٠-٦٤]؛ والأمر لا يشكل على من له عقل؛ إذ كيف يستجيز بعض الناس عبادة من لا يفعل شيئاً ممّا ذكرته الآيات الكريمة؟ ولهذا قال في كلّ تعقيب: ''أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ''، أي أَإِلَهٌ مع الله سوى الله يفعل بكم شيئا من ذلك فتعبدوه من دونه أو تشركوه في عبادتكم، ولهذا قرر القرآن حقيقتهم بأنّهم قوم يعدلون عن الحق ويجورون عليه مع علمهم بأنهم على خطأ وضلال، وأنّهم لا يعلمون ما عليهم من الضر في إشراكهم في عبادة الله غيره، وما لهم من النفع في إفرادهم الله بالألوهية وإخلاصهم له العبادة وبراءتهم من كل معبود سواه، وأنّهم قليلا ما يتذكرون عظمة الله وأياديه عندهم؛ فلذلك أشركوا بالله غيره في عبادته[٢٥٣]، وجماع ما تقدم في هذه الآيات هو الاستدلال على أحقية الله تعالى بالعبادة وحده[٢٥٤].

والشاهد هو أنّ الإقرار بالربوبية حجة على من أقر، ودليل – من وجه آخر – يهدي الناس للإله الحق؛ فالذي يخلق ويرزق ويميت ويحيي هو من يستحق العبادة، وهو معنى قوله تعالى: ''اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ''[الروم:٤٠]، ومعلوم أنهم يقولون: ليس فيهم من يفعل شيئا من

---

[250] انظر: تفسير البغوي(٢٨٣/١)، ومفردات القرآن(١٢٠٣/١).

[251] أضواء البيان(٢١٩/٢) مع بعض التصرف، وانظر: المحرر الوجيز(٣٦٢/٥)، وروح المعاني(٥٣/٢٩).

[252] (وتوحيد الربوبية لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال) شرح قصيدة ابن القيم(٣٦٥/١)، وانظر: معارج القبول(٤٠٢/٢)، ومع ذلك فقد ساق القرآن من البراهين ما يكفي لإقامة الحجة والبرهان، كما في قوله تعالى: ''أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ''[الطور:٣٥- ٣٦].

[253] انظر: تفسير الطبري(٣/١٠، ٤، ٥، ٦).

[254] انظر: التحرير والتنوير(٣٠٩٢).

ذلك فتقوم عليهم الحجة[٢٥٥]، ولهذا المعنى العميق كان توحيد الألوهية متضمناً لتوحيد الربوبية دون العكس؛ فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها[٢٥٦]، قال تعالى: ''وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا''[الفرقان:٣]، وقال تعالى: ''أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ''[الأعراف:١٩١]، وقال تعالى: ''أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ''[النحل:١٧]، وخلاصة القول أنّ توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات – أي توحيد المعرفة والإثبات – وسيلة إلى توحيد الألوهية، ودليل عليها، لأنَّ توحيدَ الألوهيةِ غايةُ الخلق وحكمته المقصودة[٢٥٧].

---

[255] انظر: فتح القدير(٢٢٧/٤)، وتفسير القرطبي(٤٠/١٤)، وتفسير السعدي(٦٤٣).

[256] انظر: شرح العقيدة الطحاوية(٧٧/١).

[257] انظر: تيسير العزيز الحميد(٥١١/١).

المبحث اثاني

العلاقة بين التوحيد والتحرر من الطاغوت

العلاقة بين التوحيد وبين التحرر من مسالك الطاغوت تتمثل في أمرين:

الأول: دفع الشبهات والرد عليها وبيان بطلانها.

الثاني: كبح الشهوات عبر منهج متكامل سآتي على ذكره فيما سيأتي من الفصول.

أمّا الشبهات فكان المنطق القرآني منصبٌ على ظاهر ما يعبدون؛ فإذا بطل ظاهرهم بطلَ ما يُخفون في نفوسهم من الحقائق والدوافع، ومثاله قوله تعالى: ''قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ''[الأحقاف:٤]، أي هاتوا دليلاً يشهد لكم أن آلهتكم خلقت لكم شيئا من ذلك فاستحقت من أجله عبادتكم لها، فإن لم تأتوا بالدليل– ولن تأتوا به – فاعلموا أنّ دعواكم أن آلهتكم تستحق العبادة بوجه من الوجوه دعوى باطلة[٢٥٨]، وهو ما يعنيه قوله تعالى: ''أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ''[الأنبياء:٢٤]، وقوله تعالى: ''أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ''[النمل:٦٤]، فليس عندهم برهان ولا حجة.

فالقرآن أقام الحجة والبرهان القاطع على أنّه لا يُعبد إلاّ الله، وهذا يعني إسقاط الطاغوت، لأنّ الطاغوت هو ما عُبد من دون الله بأي صورة من صور العبادة، والتوحيد هو أن لا يُعبد إلاّ الله، وهذا يعني كمال التحرر والتحرير؛ وعلى هذه الحقيقة يدور القرآن الكريم لأنّ الغاية من الخلق هي عبادة الله وحده، فتحقيق التوحيد بالصورة الشرعية نسفٌ للطاغوت من القواعد، وردٌ قاطع على كل شبهة، ووصولٌ لغاية التحرر والتحرير بصورتها الأمثل والأكمل، وهذا يقودنا لتعريف العبادة التي لا يتحقق التوحيد إلاّ بها[٢٥٩]، لأنّ رفض العبادة لغير الله هو جوهر التحرر والتحرير[٢٦٠].

والعبادة اصطلاحاً اختلف العلماء في تعريفها على أقوال؛ (فمنهم من قال: هي ما أمر به شرعا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي، وعرفها طائفة بأنّها كمال الحب مع كمال الخضوع، وقال شيخ الإسلام: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، أو هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل؛ فالدّين كله – إذن – داخل في العبادة، ويُصبح معنى هذه التعريفات للعبادة معنىً واحد)[٢٦١]؛ لأنّ العبادات لا

---

[258] انظر: الرد على تصحيح علم الغيب(٤٩).

[259] انظر: فتح المجيد(١٤/١).

[260] انظر: رسالة التوحيد للدهلوي(٩٥).

[261] شرح قصيدة ابن القيم(٢٥٨/٢-٢٥٩) مع بعض التصرف، وانظر: رفع الشبهة والغرر(٦٧).

يتوصل إليها بالعقل أو العرف؛ إذ العبادات لا تتعين إلا بتعيين من الشارع الذي ينص على ما يرضيه من العبادات وعلى ما لا يرضيه، وأما العقل أو العرف فلا يستقل أحدهما بشيء من ذلك، فالله وحده يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة وما يشاء معصية، ومن قال بعكس هذا جعل الله تعالى محكوما عليه مغلوبا، وذلك كله على الله تعالى محال[٢٦٢]، فطاعة الله بامتثال ما أمر الله به، والخضوع لحكمه فيهم، والانقياد لتدبيره هي حقيقة العبادة[٢٦٣]؛ فإذا عُلمَ هذا؛ فإنّ التوحيد تحرير للإنسان من عبادة غير الله سبحانه وتعالى.

التوحيد قاعدة التحرر في مناهج[٢٦٤] الأنبياء جميعاً

لأنّه لا تحرير ولا تحرر إلاّ بالتوحيد، لذلك بُنيَ المنهج الإسلامي في التحرير والتحرر من الطاغوت بكافة أنواعه على هذه القاعدة الأساسية التي توصف بالوقائية من وجه وبالعلاجية من وجه آخر، ثمّ ما ينبثق عنها من تصور جديد عن الكون والإنسان والحياة، وهو تصور ضروري في عملية التحرير، وفي غياب القاعدة التحررية تُصبح عملية التحرير وهمية، ويُصبح الجهد المبذول هدراً لا قيمة له؛ إذ الانشغال بأعراض المرض دون الولوج لأسبابه الحقيقية عملٌ لا فائدة منه، والدليل هو دعوة الأنبياء جميعاً.

ما من نبي أُرسل إلاّ وقدّم بين يدي دعوته هذه القاعدة الأساسية، ثمّ بنى عليها أهدافه وغاياته التي يريد تحقيقها، وهو ما نفهمه من قوله تعالى: ''وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ''[النحل:٣٦]، ومن ذلك دعوة نوح عليه السلام كما في قوله تعالى: ''لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ''[الأعراف:٥٩]، وكذلك هود عليه السلام كما في قوله تعالى: ''وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ''[الأعراف:٦٥]، والأمر ذاته مع صالح عليه السلام كما في قوله تعالى: ''وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ''[الأعراف:٧٣]، وها هو شعيب عليه السلام على التأسيس نفسه، كما في قوله تعالى: ''وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ''[الأعراف:٨٥]، وقال الله مخبراً عن موسى صلى الله عليه وسلم في محاجته مع فرعون: ''قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مّوقِنِينَ''[الشعراء:٢٣-٢٤]، وقال عن عيسى صلى الله عليه وسلم: ''إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ''[الزخرف:٦٤]، وهكذا كانت دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى كلمة سواء: ''قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً

---

[262] انظر: الإعلام بما في دين النصارى(١٥٤، ١٥٥).

[263] انظر: الفصل بالملل(٣/٨٠).

[264] قلتُ: ''في مناهج الأنبياء''، ولم أقل: ''في منهج'' تبعاً لقوله تعالى: ''لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا''[المائدة:٤٨].

وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ''[آل عمران:٦٤]؛ فمنهج الرسل الكرام مؤسسٌ على التوحيد أولاً، وإن اختلفت مشاكل الأقوام التي بُعثوا إليها، كالانحرافات الجنسية، أو الانحرافات الاقتصادية، أو الانحرافات النفسية؛ فأياً كان المرض المُراد علاجه، أو الانحراف المُراد تقويمه لا بدّ من البناء أولاً على قاعدة التوحيد[٢٦٥].

وهكذا كان منهج نبينا حين بُعث في مجتمع يموج بأنواع المفاسد كالرق والغارات والبغاء والنهب والسطو والخرافات وغيرها، فلم ينشغل صلى الله عليه وسلم في معالجة الجوانب الجزئية في حياة أهل مكة بل دعا للتوحيد أولاً، أي دعا لتأسيس القاعدة التي يُعالج عليها كل تلك المفاسد والآثام، وبنى على تلك القاعدة التحرر والتحرير المنشود، سواء من الشبهات أو الشهوات، لأنّ كلّ السيئات التي كان يزاولها أهل مكة في حينه كان منبتها غياب عقيدة التوحيد فسيطرت عليهم الخرافات والشهوات، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول للناس: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا[٢٦٦]، والمعنى أنّه لا معبود بحق سوى الله[٢٦٧]؛ فالمُستحق للعبادة هو الله وحده لا شريك له[٢٦٨]، وهي دعوة كانت قريش تفهمها تماماً، ولهذا كان جوابهم عنيفاً شديداً، وكان الصدام معهم مروعاً، ومع هذا لم يقم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتغيير أو التبديل لتخفيف الحالة الصدامية، لأنّ التفريط بالقاعدة تفريط بالتغيير والإصلاح والبناء، و(ذلك ما تقتضيه طبيعة هذا الدين؛ فهو دين يقوم كله على قاعدة التوحيد في تنظيماته وتشريعاته وتصوراته؛ فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية، ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا، ممّا يجعل بناء العقيدة وتمكينها، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب

---

[265] لا بدّ من التنبيه على أنّ قول الأنبياء: ''مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ''، أو ''أن لا تعبدوا إلا الله'' فيه معنى ''لا إله إلا الله'' مطابقة، وانظر: فتح المجيد(٧٨).

[266] عن طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بسوق ذي المجاز و أنا في بياعة لي فمر و عليه حلة حمراء فسمعته يقول : ''يا أيها لناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا'' المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر نبي الله وروحه عيسى بن مريم(٦٦٨/٢) رقم(٤٢١٩)، وقال الحاكم: ''هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه''، وقال الذهبي في التلخيص: ''صحيح''، وانظر: مجمع الزوائد، كتاب المغازي والسير، باب تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم ما أرسل به وصبره على ذلك(١٩/٦) رقم(٩٨٢٩)، وقال الهيثمي: ''رواه الطبراني ورجاله ثقات''، ورواه أصحاب السير، وغيرهم من المحدثين.

[267] انظر: تفسير أسماء الله الحسنى(٢٦)، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: ''يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم''[صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى(٢٦٨٥/٦) رقم(٦٩٣٨)]، والشاهد هو أنّه لا يُعبد إلاّ الله، و(الألوهية هى العبادة، والإله هو المعبود، والتألّه التفعل من ألّه يألّه، ومعنى ألّه: عبد). فتح المجيد(١٠) مع بعض التصرف.

[268] (الفرق بين قولنا: يحق له العبادة، وقولنا: يستحق العبادة: أنّ قولنا يحق له العبادة يفيد أنه على صفة يصح أنه منعم، وقولنا يستحق يفيد أنه قد أنعم واستحق، وذلك أن الاستحقاق مضمن بما يستحق لأجله) م/ الفروق اللغوية(١٩٣/١).

النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة؛ فاستقرار عقيدة: ''لا إله إلا الله'' يعني استقرار النظام المُنبثق عنها، فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان، وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له، وهكذا أبطلت الخمر والربا والميسر والعادات الجاهلية كلها)[٢٦٩]، وهكذا أيضاً تحقق التحرر والتحرير، ولهذا كان الخطاب القرآني – وخصوصاً في مكة – يدور حول هذه الحقيقة تقريراً وترسيخاً بشتى الوسائل والسبل؛ فهي المدخل الوحيد الذي منه ينبثق منهجُ التحرر والتحرير.

ولأنّ كلمة التوحيد تحمل من المعاني – أي من اللوازم[٢٧٠] – ما يجعلها أساساً لتحقيق غايات وأهداف المنهج في التحرر والتحرير، فهي إعلانٌ للبراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله[٢٧١]، كما قال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ''وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ، إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ''[يس:٢٢-٢٤]، وأي دعوة للتحرير على غير هذا الأساس تُصبحُ وهماً كاذباً، وسراباً مُضلاً.

أصول المنهج القرآني في تحقيق التوحيد في نفوس الناس

ولمّا كان بناء العقيدة طريقاً وحيداً نحو التحرر والتحرير، لأنَّ العقيدة الصحيحة هي الرد الصحيح على الشبهات، والتأسيس المتين في دفع الشهوات؛ فقد أولى القرآن الكريم هذه القضية أهمية خاصّة وصولاً لترسيخ التوحيد، لِما ينبثق عنه من تصورات وحقائق وتكاليف؛ فمقصود القرآن ليس هو المعرفة النظرية المجردة المُتعلقة بالتوحيد كقاعدة للتحرير والتحرر من الطاغوت؛ فهذا تصورٌ منكوس، لا يُعبِّرُ عن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء العقيدة وتثبيتها في نفوس الجيل الأول، وجعلها أساساً للسلوك والممارسة، وإنّما المقصود هو استشعار الحقائق الكلية والجزئية المنبثقة عن تلك القاعدة، وجعلها واقعاً ممارساً في واقع الحياة، وهو ما نفهمه من قول عائشة رضي الله عنها في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''فإنّ خلق

---

[269] ظلال القرآن (١٠٠٩) مع بعض التصرف.

[270] وهذا وجه من وجوه شرح الحديث الشريف الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: ''من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ''[السلسلة الصحيحة(٥/٤٥٤) رقم(٢٣٤٤)]، وفي شرحه (قيل: كان في ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك، وقيل: لمن أتى مع الشهادتين بالفرائض واجتنب الكبائر لأن ذلك من لوازم الإقرار بهما، وقيل: لمن قالها تائبا ومات على توبته، وقيل: المراد به تحريم نار الخلود، ودخوله الجنة لا محالة ابتداء أو بعد التطهير بالنار) نظم المتناثر، كتاب الإيمان(١/٢١) رقم(٨) مع بعض التصرف، وانظر: سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/٢٣) رقم(٢٦٣٨).

[271] انظر: تيسير العزيز الحميد(١/١١٢).

نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن''[٢٧٢]، أي يتخلق بأخلاقه ويتأدب بآدابه؛ فهو صلى الله عليه وسلم يُجسد القرآن في حياته[٢٧٣]؛ ولهذا نهج القرآن سبلاً متعددة وأساليب متنوعة لتحقيق هذا الغرض، ويُمكن إجمال ذلك بما يلي:

أولاً: أقام الدليل العقلي الجازم على أنّ الله هو خالق كل شيء ومليكه، وهو وحده المُتصرّف في هذا الكون... وهو ما يُطلق عليه توحيد الربوبية؛ فلفت انتباه الناس إلى عظيم صنعه في خلقه تنفيذاً لقوله تعالى: ''سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ''[فصلت:٥٣]، أي دلائل التوحيد المودعة في النفس وفي الآفاق.

واستدل القرآن بوجود الخلق على الخالق، وبعظمة الخلق على عظمة الخالق، وذلك بأساليب متنوعة تستثير الفطرة وتُعيدها إلى التنبه واليقظة كي تدرك الحقائق وتستشرف معانيها، ويحرر العقل وينطلق به إلى أقصى مدى من التحليق وصولاً إلى الغاية المُبتغاة من ترسيخ العقيدة، ومن ذلك قوله تعالى: ''أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً''[الفرقان:٤٥]، وقوله تعالى: ''أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ، وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ''[الأنبياء:٣٠-٣٣]، ويظهر الدليل والبرهان واضحاً جليّاً في قوله تعالى: ''أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ''[الطور:٣٥-٣٦]، والآيات في هذا البيان كثيرة، والقرآن الكريم يزخر بالأدلة على هذا النوع.

والأدلة العقلية التي قدّمها القرآن تتفاعل مع طبيعة الإنسان وفطرته التي فُطر عليها، فالإنسان يوقن بطبيعته أنّ نصف الشيء أقل منه، ويوقن أنّ المخلوق لا بدّ له من خالق، والنّظام لا بدّ له من مُنظِم، وهكذا دواليك، وهي طبيعة أرادها الله سبحانه للوصول لفهم آياته المبثوثة في خلقه، وكلها تُقيم الدليل العقلي القاطع على توحيد الربوبية، ومن ذلك قوله تعالى: ''أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ، أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

---

[272] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٥١٢/١) رقم(٧٤٦)، وفي رواية أخرى: ''كان خلقه القرآن''[الجامع الصغير وزياداته(٨٩٥/١) رقم(٨٩٤٢)، وقال الألباني:''صحيح''].

[273] انظر: جامع العلوم والحكم(١٤٨/١).

يُشْرِكُونَ، أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ''[النمل:٦٠-٦٤].

ويظهر جلياً من خلال الآيات الكريمات أنَّ القرآن الكريم – بعد أنْ أقام الدليل على توحيد الربوبية – اعتبر توحيد الربوبية دليلاً على توحيد الألوهية، وهذا يُظهر مدى الترابط بين أنواع التوحيد التي سبق ذكرها، ونحو ذلك قوله تعالى: ''قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ''[يونس:٣١]، أي كيف تعبدون من لا يملك صفات الربوبية؟

ثانياً: أقام الدليل العقلي الجازم على صدق الأنبياء، وأيدهم بالمعجزات الجازمات؛ فليس هناك نبي مُرسل من عند الله إلاّ وقدّم الدليل القاطع على نبوته؛ **(**فقد أيد الله الرسل – عليهم الصلاة والسلام – بالمعجزات الباهرة للعقول، والخارقة لسنن الكون وقوانين الحياة، ليستدلوا بها على صدق نبوتهم، وإثبات رسالتهم، فإذا ثبتت نبوة الرسل بقيام المعجزات علم أن هناك مُرسِلاً أرسلهم؛ لأن ثبوتَ الرسالة يستلزم ثبوت الْمُرسِل، والعلم بالإضافة يستلزم العلم بالمضاف إليه، فالمعجزات نفسها يعلم بها صدق الرسول المتضمن لإثبات من أرسله، والآيات الباهرات التي يستدل بها على إثبات الخالق تدل المعجزة كدلالتها وأعظم**)**[٢٧٤].

من هنا نُدرك أنّ الدليل العقلي في القرآن أُقيمَ للدلالة على قضيتين اثنتين هما: توحيد الربوبية وإثبات النّبوة، لأنّ إثبات هاتين القضيتين يترتبُ عليه جملة قضايا عقدية؛ فيُصيرُ الدليل المُقدمُ لتوحيد الربوبية وإثبات النّبوة أساساً لبناء العقيدة كلها، ولهذا حشد القرآن أدلة متنوعة متعددة تُورِثُ اليقين الجازم، ثمّ أرشد القرآن – بعد أن قدّم دلائل التوحيد والمعجزات المُؤيدات للرسل الكرام – إلى طرق النّظر والتدبر والاستدلال، ووضع قواعد للعقل كي لا يضل، كما في قوله تعالى: ''وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً''[الإسراء:٣٦]، قل هاتوا برهانكم، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا،

وهنا لا بدّ من التنبيه أولاً: على نظرية المعرفة، والتي تُبنى على ما هو مركوز في فطرة الإنسان من مُسلمات بدهية، كقولنا: البعرة تدلّ على البعير، ونصف الشيء أقل منه، والمعلول لا بدّ له من علة، وغير ذلك من المُسلمات التي لولاها لما كانت هناك معرفة أو علم أو حقيقة. وثانياً: على العلاقة بين العقل والنقل بعدما ثبت مصدره، فهي علاقة تُشبه العلاقة بين البصر والنور، فلا ينفعُ النورُ من كان أعمى، ولا يغني البصرُ في الظلمة، وهكذا كان العقل بصراً والشرع نوراً.

---

[274] م/ الحكمة في الدعوة إلى الله(١/٤٥٣).

ثالثاً: القدوة الحسنة، وهي إضافة عملية للبراهين العقلية، وهي برهان عملي ضروري كي لا نقع في المثالية؛ فالقدوة هي تجسيد السلوك المُنبثق عن العقيدة في واقع الحياة، ويُوضِّح هذا المعنى قول السيدة عائشة رضي الله عنها حين سُئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: ''فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن ''[٢٧٥]، أي كان صلى الله عليه وسلم مُتخلقاً به، ويعمل بمقتضاه، ويقف عند حدوده، ويتأدب بآدابه، وكل ما استحسنه القرآن وأثنى عليه فقد تحلى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه تجنبه وتخلى عنه[٢٧٦]؛ فكان تجسيداً واقعياً لكل معاني القرآن، وقدوة حسنة لأتباعه؛ إذ كيف يستقيم الأمر مع رجل يأمر الناس بأمر ثمّ يأتي خلافه، وهو ما أشر إليه قوله تعالى: '' أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ''[البقرة:٤٤]، وقوله تعالى: '' كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ''[الصف:٣].

ومن بَعْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت جماعة المسلمين المُتمثلة بأصحابه الكرام خير قدوة للناس، وهم يشاهدون في واقع الحياة مجتمعاً متحرراً من الشبهات والخرافات، يحيا بيقين وبصيرة وعلم، ويُحوّل كل هذا لسلوك عملي أظهر طاقات بشرية جبارة في القدرة على التحمل والصبر والتضحية ممّا جعل ألد أعدائه يعيد النّظر في مواقفه من الدين الجديد، لقد انتصروا أولاً على أنفسهم فانداحت الحقائق من داخل النفس واقعاً معبراً عن أعلى درجات التحرر والنعتاق والانطلاق نحو أسمى معاني الحياة الإنسانية؛ فصارت الجماعة مثلاً وملاذاً فيما بعد لكل من ينشد معاني الحرية الرحبة.

---

[275] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض(٥١٢/١) رقم(٧٤٦).

[276] انظر: شرح النووي على مسلم(٢٦/٦)، وشرح السيوطي على مسلم(٣٥٧/٢)، وحاشية السندي(٢٠٠/٣)، وفيض القدير(١٧٠/٥).

الفصل الثالث

منهج القرآن في تحرير الانسان من الشهوات

المبحث الأول: التنظيم والبديل والوقاية

المبحث الثاني: تزكية النفس تحررٌ من الشهوات

مقدمة الفصل

التأثير السلبي للشهوات على الإنسان دركات، وأحط هذه الدركات هي الحالة الطاغوتية[٢٧٧]، وبها يصير الإنسان عبداً لشهوته كما عبّر الحديث الشريف عنها بقوله صلى الله عليه وسلم: ''تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ[٢٧٨]''[٢٧٩]، ولم يقُل ''مُحبُّ الدينار''، لأنّ الإنسان بطبعه يحب المال، ودلّ على ذلك قوله تعالى: ''وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ''[العاديات: ٨]؛ وهذا يعني أنّ وجود الشهوات لا يعني الإصابة بالحالة الطاغوتية، ولكنّ وجود الشهوات – إن تفاقم – مقدمةٌ ضرورية للحالة الطاغوتية، لأنّ انعدام الشهوة يعني قطعاً السلامة من الإصابة بالحالة الطاغوتية، ولكن حينها لا يُمدح الإنسان ولا يُذم كالعِنّينِ مثلاً.

فالحالة الطاغوتية هو إفرازٌ لشهوات النفس المُتضخمة، وهي الحالة التي تتضخم فيها الغريزة أو الشهوة إلى الحد الذي ينقلب الإنسان فيها إلى عبد مطيع لتلك الشهوات[٢٨٠]، والأدلة على خطورة الشهوات كثيرة منها: قوله صلى الله عليه وسلم: ''إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى''[٢٨١].

ولأنّ التحررٌ من الشهوات تحررٌ من هوى النفس ومن الشيطان، ولأنّه تحرر من الرق المعيق عن بلوغ الإنسان الهدف الحقيقي لإنسانيته؛ فالتحرر من الشهوات هو أحد جوانب الكمال الإنساني، وهو ما يتناقض مع الحالة الطاغوتية، لذا أولى القرآن الكريم هذه القضية عناية فائقة؛ فبعد تأسيس المنهج على قواعد التحرير – وهي القواعد التي تؤسس لتحرير الإنسان من العوائق المعنوية والمادية المؤثرة على قناعات الإنسان وقراراته – ينطلق الإنسان نحو تحقيق الكمال الأعلى للحرية، وهي الحالة التي يشعر الإنسان معها بانفلاته من تلك القيود المادية والمعنوية –

---

[277] ويُمكن التعبير عن الحالة الطاغوتية بأنّها حالة مَرَضية، ومثل ذلك قوله تعالى: ''يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ''[الأحزاب:٣٢]، أي في قلبه شهوة فجور وزنا، وعبّر عنها القرآن بالمرض، وهي حينئذٍ حالة مسيطرة، وانظر: روح المعاني (٥/٢٢)، والدر المثور(٥٩٩/٦).

[278] كساء أسود مربع له خطوط.

[279] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (١٠٧٥/٣) رقم(٢٧٣٠).

[280] كما ورد في حديث: "يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم. أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله "، والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: "قبلتهم نساؤهم"، وهو تعبير عن معنى العبادة؛ فكأنه يعبد امرأته. كشف الخفاء(٥٤١/٢) رقم(٣٢٧٠)، وانظر: الفردوس بمأثور الخطاب(٤٤٤/٥) رقم(٨٦٨٨)، وكنز العمال الإصدار، رقم(٣١١٨٦)، والحديث رواه السلمي عن علي رضي الله تعالى عنه.

[281] قال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار والطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح، لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو علي بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن"، وانظر: مجمع الزوائد، كتاب العلم، باب في البدع والأهواء(٤٤٦/١) رقم(٨٩١).

سواء كانت شبهات أو شهوات، تلك القيود التي تُقيّد قدرته على اعتناق ما يؤمن به وممارسة السلوك الذي يُفرزه ذلك الإيمان[٢٨٢].

والتحرر من الشهوات تحررٌ من الهوى لأنَّ الهوى هو: ''ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات''[٢٨٣]؛ ولذا لا يتمُّ التحرر من الهوى إلاَّ بالتحرر من الشهوات، وحين يتحرر الإنسان من شهوات النفس يتحرر من الشيطان، لأنَّها مداخل الشيطان[٢٨٤]، يقول صلى الله عليه وسلم: ''إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ''[٢٨٥]، ودلَّ على خطورة الشهوات قولُه صلى الله عليه وسلم: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"[٢٨٦]، والمعنى أنّ الطاعة ثقيلة على النفس، فالجنة محفوفة بما تكرهه النفس ويشُق عليها، أما النار فحفت بالشهوات ممّا تميل إليه النفس وتستلذه كشهوة الفرج، وشهوة البطن، وشهوة الجاه، وشهوة المنصب وغيرها، ويوضح هذا قوله تعالى: ''زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا''[آل عمران:١٤].

وكلما ارتقى الإنسان في تحرره من الشهوات يصير زاهداً[٢٨٧]، ويقترب من مقام الملائكة حيث تنعدم الشهوة وتسود الروح[٢٨٨]، وهو مقام يصله القلة والصفوة من النّاس كالأنبياء والصّديقين حيث تنعدم الشهوة فاعليتها – ولا ينعدم وجودها، لأنَّه لا يُمدح العِنِّين[٢٨٩] بكبح شهوة الفرج – فتتفجر حينها ينابيع الحكمة، وتظهر طاقات الإنسان بأعلى مستوياتها.

والشهوات بعضها أعمق من بعض؛ فبعضها أصلي وبعضها مركب وبعضها ثانوي؛ فأعمقها على الإطلاق ما كانت الضرورة من أجله، وهو حب البقاء، ويليها الشهوات التي أصلها ضرورة، كشهوة البطن والفرج والأكل والشرب، ومثال الثانوي حب المال لأنّه وسيلة لكثير من

---

[282] ذكر الجرجاني ثلاث مراتب للحرية: ''حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم من إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار'' التعريفات(١/١١٦).

[283] التعريفات (١/٣٢٠).

[284] نيل الأوطار(٨/٢٥).

[285] صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢/٧١٧)رقم(١٩٣٣)، وأنا على رأي من أخذ بالحديث على ظاهره، وأنَّ الله تعالى أقدره على ذلك، ومن قال أنّه على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه، وكأنه لا يفارق كالدم، فإنَّ قوله هذا لا يتناقض مع كون الشيطان طاغوتاً داخلياً. انظر: فتح الباري(٤/٢٧٩).

[286] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤/٢١٧٤) رقم(٢٨٢٢).

[287] انظر: الزهد وصفة الزاهدين(١/٢٥)، وكتاب الزهد الكبير(٢/٧١).

[288] انظر: التعاريف(١/٧٤٤).

[289] العنين – بكسر العين والنون المشددة – العجز عن الوطء، أو هو الذي لا يشتهي النساء. انظر: المطلع على أبواب المقنع(١/٣١٩).

الشهوات التي لا يُتوصل إليها إلاّ به، ثم إذا تضخّم حب المال صار محبوبا لنفسه، وتصير الدنانير عنده هي المحبوبة وهذا غاية الضلال[٢٩٠].

وفي هذا الفصل نبني على ما تقدم من الفصول؛ فبعد إقناع العقل بالحجج والبراهين لتحقيق التوحيد ودرءاً للشبهات وتحقيقاً لفطرة الانسان في العبادة[٢٩١] يأتي دور حماية المشاعر والأحاسيس والسلوك من الشهوات، فالعقيدة أولاً، لأنَّ الدين عبارة عن نظام حياة يستند إلى تصور يشمل المنظومة القيمية والتشريعية، ولبناء هذا التصور لا بدّ من الدليل والبرهان، ثمّ تسير العقيدة والبناء النفسي المؤسس عليها معاً، فالعلاقة بينهما تبدأ مرحلية، ومع بدء المرحلة الثانية يسيران معاً.

ولتحرير الإنسان من الشهوات بعد تحريره من الشبهات والخرافات، وضع القرآن الكريم لذلك منهجاً متكاملاً يتناسب مع طبيعة الإنسان وفطرته، يقول تعالى: ''فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ''[الروم: ٣٠]، فهو منهج يراعي واقع الإنسان، ولا يتنكر لطبيعته، بل إنّ القرآن الكريم يبني منهجه على علم وبصيرة وإحاطة بمكنونات الطبيعة البشرية، وهو معنى قوله تعالى: ''أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ''[الملك: ١٤].

---

[290] انظر: سبل السلام(٤/١٨٤-١٨٥).

[291] دلّ على هذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ'' صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١/٤٥٦) رقم(١٢٩٢).

المبحث الأول

التنظيم والبديل والوقاية

تنظيم إشباع الشهوات المباحة

لقد أبدع القرآن الكريم إبداعاً تاماً في التعامل مع شهوات الإنسان؛ فهو من جانب أقرّ واعترف بها، ومن جانب آخر سعى لتنظيم إشباعها أو الصبر حتى يكون البديل في الآخرة عنها، أدوم حالاً، وألذ مذاقاً، وبيان هذا الإيجاز فيما يلي:

الاعتراف بشهوات الإنسان وعدم التنكر لها أنقذ الإنسان من الوقوع فيما يُسمى بالكبت النفسي، والأمثلة على هذا الإقرار كثيرة منها قوله تعالى: ''زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا''[آل عمران:١٤]، فها هو القرآن يقرر أنّ الناس كلَّ الناس قد زُيّن لهم حبّ ما ذُكر.

ومن ذلك كراهة الإنسان للقتال لما يرتبط به من موت أو جراح مؤلمة أو فقدان الأحبة، أو هلاك المال، وغير ذلك مما تنتجه الحرب من الأذى والآلام، والقرآن أقر هذا بقوله تعالى: ''كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ''[البقرة: ٢١٦]، ويُشبه هذا ويؤيده ما جاء في الحديث القدسي: ''وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَه''[292]، وقول عائشة رضي الله عنها: ''كُلُّنَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ''[293] وإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لها، والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى.

إنّ الاعتراف بوجود الشهوات لا يعني الفوضى في الإشباع، أو التخمة في الشبع، ومثال ذلك شهوة البطن؛ فالوضى تعني إشباع الشهوة بأي طريقة كانت، وتحصيل ما لذ وطاب من المطعومات والمشروبات بأي وسيلة متاحة، ولو كان ذلك بالغش والاحتكار والاختلاس، وهو منطقٌ يصير فيه البيع كالربا، وهو منطق الضالين حين قالوا: ''إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا''[البقرة:٢٧٥]، فقد بالغوا في اعتقادهم في حل الربا فجعلوه أصلا وقانونا في الحل حتى شبهوا به البيع[294].

والتخمة في إشباع الشهوة كالفوضى في الضرر، وقد نهى القرآن عن الإسراف، يقول تعالى: ''وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ''[الأعراف:٣١]، أي المتجاوزين ما حد لهم[295]، وقد قيل: '' كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف

---

[292] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٥/٢٣٨٤) رقم(٦١٣٧).

[293] سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، بَاب ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ (١٢/٣١٦) رقم(٤٢٥٤).

[294] انظر: الكشاف (١/١٥٨).

[295] انظر: تفسير الجلالين (١/١٨٧).

ومخيلة''[٢٩٦]، لأنّ الإسراف في الشهوة استرقاق من نوع آخر يصير الإنسان به عبداً لشهوة لا منتهى لها، ولذا جاءت الدعوة للوسطية في الأمور كلها، يقول تعالى: ''وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا''[الفرقان:٦٧].

ونَفْيُ الفوضى والتخمة لا يكون بالإباحة المُطلقة، ولكن بتنظيم إشباع الشهوة الذي يساوي بالمعنى الفرقُ بين الكبت والضبط؛ فلا إفراط ولا تفريط؛ فالقرآن يضبط الرغبات ويوجهها لتكون أداة بناء وتعمير لا أداة هدم وتخريب؛ لأنّ الغرائز طاقة حقيقية تدفع الإنسان دفعاً نحو الحركة[٢٩٧]، والقرآن يُنظم هذه الحركة ولا يقمعها، لأنّ قمع وكبت تلك الغرائز قتلٌ لحركة الإنسان وتعطيلٌ وجمود، لهذا كان التنظيم درءاً للكبت واستفحال الشهوة ودفعاً للإنسان نحو الحياة والحركة والنمو.

والأمثلة على تنظيم الشهوات كثيرة يكفي منها إباحة الزواج والترغيب فيه عبر تنظيم شرعي معروف تترتب عليه حقوق وواجبات، وفي المقابل حرّم الزنا كطريق لإشباع الشهوة لما يترتب عليه من فوضي في الأنساب وضياع في الحقوق والواجبات، يقول تعالى: ''وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ؛ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ''[المعارج:٢٩-٣١]، ولهذا أقرّ القرآن بحاجة الإنسان ولكنّه نظمها، ومثل ذلك يُقال في شهوة المال؛ فالقرآن نظم المعاملات المالية كالبيع والشراء والإجارة والرهن، ودعا لتعمير الأرض واستخراج خيراتها، وفي المقابل حرم الربا والسرقة والغش كطرق غير مشروعة لتحقيق شهوة المال.

وهكذا أعطى القرآن فسحةً مُنظمةً درءاً للكبت ودفعاً للإفراط والتنطع والمغالاة، ودلَّ على هذا ردُّ رسول الله على الذين غالوا في قمع شهواتهم، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ آكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ؛ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: ''مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّى أُصَلِّى وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى''[٢٩٨]، وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُنَبِّهَ على أن جهاد النفس إلى حد المغالبة غير

---

[296] تفسير النسفي (٩/٢).

[297] فالإنسان مثلاً حين يتحرك ويجدّ فيجمع المال لورثته يُعبّر عن غريزة البقاء وحب النسل، وتراه يبذل الجهد الكبير عبر حركة نشطة لتحقيق هدفه في الزواج وتكوين أسرة، وهكذا نرى أنّ الغرائز محركات للإنسان.

[298] صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وَوَجَدَ مُؤْنَةً وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ (١٠٢٠/٢) رقم(١٤٠١).

مطلوب[٢٩٩]، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ''إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَه''[٣٠٠].

وتنظيم الشهوة لا منعها يجعل منها عبادة يُتقربُ بها إلى الله، ودلَّ على هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا''[٣٠١]؛ فهذا ليس إقراراً واعترافاً بل هو أعلى من ذلك وأجلّ.

البديل والعِوَض

ومع هذا الإقرار والتنظيم جاء القرآن على ذكر العِوَض والأجر في الآخرة لمن فاته شيءٌ من تحقيق شهواته أو حال بينه وبينها حائل، والإنسان مهما أوتي من قدرات ستبقى له في نفسه شوقاً لتحقيق المزيد؛ فجاء القرآن على ذكر البديل الأدوم والأكمل نافياً الحسرات على ما فات، وبتعبير القرآن ''لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ''[الحديد:٢٣].

وزيادةً في تصويب السلوك ومنعاً من الانحطاط – وبعد ذكْر العوض على تركْ ما حرَّم، والصبر على ما فات، وبعد أن أباح لنا قسطاً من تلك الشهوات[٣٠٢] – رتَّب القرآن على من تجاوز تلك الحدود المباحة عقاباً أخرويا يتناسب مع حجم الانتهاك الحاصل؛ فمن اشتاق إلى الجنة واشفق من النار سلا عن الشهوات[٣٠٣]، ومن هنا ندرك إدراكاً تاماً إسهاب القرآن في ذكر الجنّة والنار، والثواب والعقاب، وحشْدِه لكل صور الترغيب والترهيب وصولاً إلى ضبط الشهوات الإنسانية والالتزام بما أقره من تنظيم لها.

وقبل أن أُسدل الستار لا بد من التنبيه أنّ بعض الشهوات محرمٌ، أي لا سبيل للفرد في ممارسته، وهنا لا يكون البحث في التنظيم، وإنّما سلك القرآن سبيل الدعوة إلى الامتناع والصبر مع جزيل الأجر في الآخرة، ورهب مَنْ تجاوز بالعذاب، وفتح مع حصول الذنب باب التوبة، وهو صمام أمان عظيم يتيح العودة والأوبة لمن زلت قدمه، وحرم كل مثير لتلك الشهوات.

---

[299] انظر: فتح الباري (١٠١/١)، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: ''إِنَّ لِعَيْنِكَ حَظًّا وَلِنَفْسِكَ حَظًّا وَلأَهْلِكَ حَظًّا. فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَصَلِّ وَنَمْ''[صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ لِمَنْ تَضَرَّرَ بِهِ أَوْ فَوَّتَ بِهِ حَقًّا أَوْ لَمْ يُفْطِرِ الْعِيدَيْنِ وَالتَّشْرِيقَ وَبَيَانِ تَفْضِيلِ صَوْمٍ يَوْمٍ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ (٨١٢/٢) رقم(١١٥٩)].

[300] صحيح البخاري، كِتَاب الْإِيمَانِ، بَاب الدِّينُ يُسْرٌ وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ (٢٣/١) رقم(٣٩).

[301] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/٢) رقم(١٠٠٦).

[302] الإحكام لابن حزم(٥٤/١).

[303] انظر: شعب الإيمان(٥١٤/١)، واعتقاد أهل السنة(٨٤٣/٤).

ومثال ذلك تحريم الشرب بآنية الذهب والفضة، وتحريم الحرير على الرجال، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ''[304]، فالحديث يُشيرُ إلى العوض المُتمثل في اليوم الآخر.

مفهوم البديل يرتبط بالإيمان باليوم الآخر

لا يمكن أن يتحقق البديل إلاّ بالأجر الموعود بالآخرة، وهذا يعني أنّ أي علاج للشهوة يرتبط في نهايته مع عقيدة التوحيد وما ينبثق عنها من لوازم وأهمها عقيدة اليوم الآخر، والناظر في القرآن يجد حجم الإهتمام البالغ في قضية اليوم الآخر، ويظهر هذا جليّاً في قوله صلى الله عليه وسلم: ''لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيبَاجَ وَلَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ''[305]؛ فالآخرة هي البديل، ولا يكون هذا إلاّ عند من يؤمن باليوم الآخر، ومرةً أخرى تظهر أسباب تركيز القرآن على عقيد اليوم الآخر؛ فبدونها تنهار المنظومة القيمية كلها.

فالبديل والأجر والعوض في الآخرة يحمل معنى الحافز للانضباط بتصريف الشهوة المباحة؛ فحديث القرآن بأن الجنة للمتقين وأن النار للعاصين حافزٌ ورادع؛ والإنسان على العموم مفطور على حب الأجر والثواب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ فَقَالَ: ''مَنِ الْقَوْمُ''. قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: ''رَسُولُ اللَّهِ''. فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: ''نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ''[306]، والمرأة لم تسأل عن الأجر، وإنما سألت عن الحج، وكان الجواب كافياً ''بنعم''، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أردف ذلك، وقال لها: ''ولك أجر''؛ لأن العبد مفطور على حب الأجر؛ فإذا علم أنه يؤجر على عمل زادت همته.

لذة اليوم الآخر دائمة، ولذة الدنيا منغصة منقطعة

بالإضافة إلى منطق الأجر الأدوم والأكمل جاء التنبيه المتكرر في القرآن بصيغ متعددة تفيد المعنى ذاته، وهو أنّ الدنيا دار فناء والمتعة فيها زائلة، وأمّا الآخرة فعية دار بقاء، والمتعة فيها لا تزول، والقاعدة في ذلك قوله تعالى: ''مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى''[النساء:٧٧]، وقوله تعالى: ''مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ''[النحل:٩٦]، فالتقليل من شأن الدنيا وما فيها من متع ولذائذ، وترغيب الناس بمتع يوم القيامة ديدن القرآن لثرة ما ورد فيه.

---

[304] صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب آنية الفضة (٢١٣٣/٥) رقم(٥٣١٠).

[305] صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الأكل في إناء مفضض (٢٠٦٩/٥) رقم(٥١١٠).

[306] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت (٩٧٤/٢) رقم(١٣٣٦).

وبعد منطق الموازنة بين الدنيا والآخرة، حذر القرآن كل مخالف له في تصريف لذته أو تحقيق شهوته، وتوعده بالعذاب يوم القيامة؛ فاكتملت صياغة القرآن لمعادلة دفع الناس نحو المُثل والقيم، ودفعهم نحو التحرر من الشهوات.

الوقاية من الشهوات

وأعني بالوقاية من الشهوات مجموعة القيم والنّظم والتشريعات التي يتبنها القرآن لكسر حدة الشهوة والتقليل من تأثيرها، وهذا الحديث يتناسب مع ما ذكرته في مقدمة البحث من أنّ المنهج الإسلامي عموماً يتصف بأنّه منهج وقاية.

ويظهر منهج الوقاية من الشهوات أول ما يظهر في منظومة القيم – المؤسسة على التصور العقائدي الإسلامي وخصوصاً اليوم الآخر – والتي يسعى القرآن لزرعها في نفوس الناس، كالعفة والتضحية والصبر والمروءة وغير ذلك ممّا له ارتباط وثيق ظاهر في الوقاية من الشهوات.

فالقرآن نهي عن القرب من الفواحش وقايةً من الوقوع فيها، ''كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيه''[307]، ومثال ذلك قوله تعالى: ''وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ''[الأنعام:١٥١]، وقوله تعالى: ''وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى''[الإسراء:٣٢]؛ فالمنهج برمته يقوم على البعد عن كل ما يثير أو يُهيج الغرائز، ولذا مُنِعَ التبرج لقوله تعالى: ''وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى''[الأحزاب:٣٣]، ومُنِعَت الخلوة مع المرأة الأجنبية لقوله صلى الله عليه وسلم ''أَلاَ لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان''[308]، وأُمِرَ بغض البصر كما في قوله تعالى: ''قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ''[النّور:٣٠]، وقوله: ''وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ''[النّور:٣١]، وكلٌّ ذلك يخدم عملية التحرر من رق الشهوة وسطوتها، وهو ما يسيمه الفقهاء بسد الذريعة.

ويُمكنني أن أَعُدَّ الزواج – كتنظيم لشهوة فطرية – في بعض وجوهه خروجاً من قهر الشهوة وغلبتها ووقايةً من الكبت النفسي المُعطل لحركة الحياة، أي أنّ الزواج إجراءٌ آخر يخدم عملية التحرر من الشهوة؛ فالتحرر من الشهوات لا يعني عدم ممارستها، فلكي تحرر إنساناً من الجوع عليك أن تطعمه، لا أن تحرمه؛ فالحرمان المطلق من الشهوات المباحة مفسدة مطلقة،

---

[307] صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٢١٩/٣) رقم(١٥٩٩).

[308] سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة(٤٦٥/٤) رقم(٢١٦٥)، وقال أبو عيسى: ''هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه''، وفي السلسلة الصحيحة رقم(٤٣٠)، وقوله صلى الله عليه وسلم: ''إلا كان ثالثهما الشيطان'' دليل على أنّ اجتناب الخلوة وقاية من الزنا، وفي رواية البخاري: ''لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم''[صحيح البخاري، كتاب النِّكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم والدخول على المغيبة(٢٠٠٥/٥) رقم(٤٩٣٥).

ولذلك قالوا: (لو سرق اللص طعاما زمن القحط والغلاء الشديد ولم يقدر عليه لم يقطع رحمة بالناس، كما حصل في عام الرمادة في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب)[٣٠٩].

وبهذا يتضح أنّ الوقاية من الشهوات لا تعني المنع، بل تعني في الشهوات المباحة الإشباع المُنضبط بأحكام الشريعة؛ فإن لم يكن الإشباع أو كان الإشباع ناقصاً كانت الدعوة للقيم كالصبر والعفة وغيرها من قيم السمو الإنساني؛ ومن لم تردعه قيمه ردعته العقوبة الملائمة لحجم الجرم.

وحتى تكتمل الوقاية فلا بدّ من مجتمع يحتضنُ تلك المعاني والقيم، أي لا بدّ من توفير البيئة التي تنمو فيها تلك المفاهيم، وتكون عاملاً حاسماً في نهوض الأفراد، وقد جاءت النصوص الكثيرة الكثيرة للحض على التزام المجتمع التي تتمثل فيه هذه القيم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ''عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة''[٣١٠]، وتأثير البيئة أمرٌ معلوم لا يخفى.

---

[309] الفقه على المذاهب الأربعة(٥/٨٠).

[310] سنن الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٦٥) رقم(٢١٦٥)قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

المبحث الثاني

تزكية النفس تحررٌ من الشهوات

وتزكية النفس هي تنمية الروح الأخلاقية، ونزعات الخير وفق القاعدة القرآنية ''وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا؛ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا''[الشمس:٧- ١٠]، ومثله قوله تعالى: ''قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى''[الأعلى:١٤]، واللفظ مشعرٌ بإطلاق الفلاح، فمن تزكى أفلح في كل أمره، والتزكية تنمية لإرادة الامتناع، والقدرة على كفّ النفس عمّا تميل إليه من الشهوات، وقد دأب الفقهاء القدامى على تسميتها بجهاد النفس، وهي ما أسميته جهاد الطاغوت الداخلي[٣١١]، وهي المعركة الحاسمة لأنّ شهوات النفس مداخلُ الشيطان، ومن الأدلة على ذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: ''إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ''[٣١٢]؛ فالشيطان يُحاكي الإنسان من الثغرات التي تميل إليها نفسه؛ ولذا قيل: جهاد النفس هو الجهاد[٣١٣]؛ لأنّه يسد طرق الشيطان والهوى عن النفس، ويقهرها ويمنعها من قبول الوساوس[٣١٤].

جهاد النفس هو التحرر

وقاعدة ما أقول قولُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ''[٣١٥]، أَيْ قَهَرَ نَفْسَهُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ بعدم الخضوع للشهوات، وَجِهَادُهَا أَصْلُ كُلِّ جِهَادٍ[٣١٦]، وهو أعلى المراتب[٣١٧]، وكما قيل: (إذا المرء لم يغلب هواه أقامه بمنزلة فيها العزيز ذليل)، وفي الحديث: ''أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك''[٣١٨]؛ ومن هنا نفهم قوله تعالى: ''وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

---

311 انظر: فتح الباري (٣٣٨/١١).

312 سنن النسائي، كِتَاب الْجِهَادِ، باب مَا لِمَنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ وَجَاهَدَ (٢١/٦) رقم(٣١٣٤)، وصححه الألباني.

313 انظر: شرح النووي على مسلم (١٤١/٣).

314 م/ انظر: دليل الفالحين (٣٩٢/٦).

315 سنن الترمذي، كِتَاب فَضَائِلِ الْجِهَادِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا (١٦٥/٤) رقم(١٦٢١) وقال أبو عيسى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح.

316 انظر: تحفة الأحوذي (١٤٢/١)، وعدَّ ابن القيم الجوزية جهاد أعداء الله فرعاً على جهاد النّفس. انظر: مختصر زاد المعاد (١٥٨/١).

317 م/ انظر: زاد المعاد (١٦١/١).

318 السلسلة الصحيحة (٤٨٣/٣) رقم(١٤٩٦).

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا''[319][العنكبوت:٦٩]، والمجاهدة هنا مخالفة الهوى[320]، وعدّه الألوسي – في تعليقه على الآية الكريمة – جهاداً أكبر[321]، وثمرتها هي حقيقة التحرر وجوهره؛ فيصبح المخالف لهواه ذا هدى وبصيرة؛ فالشهوةُ عمياءُ ضاغطةٌ تخلو من الحكمة والنّظر، ولهذا كان جهاد النفس شديداً[322] لأنَّ ما تدعو النفس إليه محبوب؛ فإذا عكس الحال وخولف اشتد الجهاد لما فيه من مفارقة لما يهواه الإنسان وغُرز فيه[323]، وهو ما نفهمه من قوله صلى الله عليه وسلم: ''وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ''[324]، وتعبير الذنوب والخطايا كناية عن إتيان الشهوات على وجه غير شرعي سواء كانت الشهوة معنوية كحب السمعة والجاه، أو مادية كشهوة البطن والفرج.

تزكية النفس بالعبادات

والمقصود بالعبادات كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقصد التقرب إلى الله تعالى، ومنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب[325]، ودلَّ على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ''[326].

فالغرض من العبادات إنما هو الخشوع لله سبحانه باتباع أوامره واجتناب نواهيه[327]؛ والخشوع حالة نفسية شعورية تعين العبد على فعل الطاعات واجتناب النواهي؛ فالعلاقة بين العبادات وآثارها تبادلية؛ فالمقصود بالعبادات التي أُمرنا بها تكميل النفس، فالنفس لها قوتان: علمية وعملية، ولا يصح كمالها في العلم فقط[328].

---

[319] ونحو ذلك قوله تعالى: '' وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ''[الحج:٧٨].

[320] م/ انظر: تفسير السراج المنير (٣١٨٤/١).

[321] انظر: تفسير الألوسي (١٦/٢١).

[322] م/ انظر: تفسير التستري (١٩٧/١).

[323] انظر: فيض القدير (٣١/٢).

[324] سنن ابن ماجة، كِتَاب الْفِتَنِ، بَاب حُرْمَةِ دَمِ الْمُؤْمِنِ وَمَالِهِ(١٢٩٨/٢) رقم(٣٩٣٤)، وصححه الألباني، وروي نحوه في الصحيح.

[325] انظر: مجموع الفتاوى (٣٨٩/١٠).

[326] صحيح البخاري ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٢٣٨٤/٥) رقم(٦١٣٧).

[327] انظر: الفقه على المذاهب الأربعة (١٧٢/١).

[328] انظر: الرد على المنطقيين (٤٦٠/١).

ثمّ إنّ ما يُميز العبادات عن العادات هو النية، وهي شرط في كل عبادة، فكل عبادة تفتقر إلى النية، وهو أمر مقصودٌ لخلق حالة نفسية شعورية ضابطة للمشاعر والسلوك، ودلَّ على ذلك قولُه صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّات''[329].

وجعل الشارع الحكيم فرائض العبادات من أسباب تحقيق تزكية النفوس، وأشهرها ما اصطلح على تسميته بالشعائر التعبدية، وقد ورد ذكرها في قوله صلى الله عليه وسلم: ''بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ''[330]؛ فهي أركان الدّين التي لا تتمّ تزكية إلاّ بها؛ وهي الأدوات الأساسية في معركة الإنسان مع شهواته سعياً منه نحو بلوغ الحد المقبول في تحقيق معاني الوجود الإنساني.

ودفعُ العبادات للشهوات أمر ظاهر؛ ومنه قوله تعالى ''فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات''[مريم: ٥٩]، فجمع بين إضاعة الصلاة وبين اتباع الشهوات، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: ''سَيَهْلِكُ مِنْ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ''. قَالَ عُقْبَةُ بن عَامِرٍ: فَقُلْتُ: وَمَا أَهْلُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: ''قَوْمٌ يَتَعَلَّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا''. قُلْتُ: وَمَا أَهْلُ اللَّبَنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ''قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَيَضَعُونَ الصَّلَوَاتِ''[331]؛ فجمع بين اتباع الشهوات وإضاعة الصلاة، والعلاقة بينهما بيّنة ظاهرة، وفي المقابل فإنّ الصلاة تنهى عن الانغماس بالشهوات والانزلاق في الملذات، يقول تعالى: ''إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ''[العنكبوت: ٤٥]، (ومعنى نهيها عن ذلك أنَّ فعلها يكون سببا للانتهاء، والمراد هنا الصلوات المفروضة)[332].

أمَّا دفع الصوم للشهوات فهو أظهر وأبين، يقول صلى الله عليه وسلم: ''قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى''[333]؛ فليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات وتطويع النفس[334]؛ فهو حماية من السقوط، وتربية للإرادة التي لا تنمو بغير الممنوع المحبب للنفس، والصيام جهاد أكبر لأنّه جهاد النفس بكفها عن شهواتها[335].

---

[329] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣/١) رقم(١).

[330] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم (بني الإسلام على خمس) (١٢/١) رقم(٨).

[331] المعجم الكبير(٢٩٦/١٧) رقم(٨١٧).

[332] فتح القدير(٢٩١/٤).

[333] صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (٦٠٨/٢) رقم(١١٥١).

[334] انظر: تفسير البغوي (١٩٥/١).

[335] انظر: فيض القدير (١٨٧/٦).

أمَّا الزكاة فكأنها لم تشرع إلا لغرض تزكية النفس وتطهيرها، يقول تعالى: ''خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُم''[التوبة:١٠٣]، (لأن المال مادة الشهوات، فأمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ من ذلك ليكون أول حالهم التجرد، لتنكسر قوى النفس وتضعف أهواؤها فتتزكى وتتطهر من خبث ورجحس دواعي الشيطان)[٣٣٦]، ويؤيد هذا ما رواه ابن عباس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر طهرة للصائم[٣٣٧]، وهو معنى قوله تعالى: ''وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ''[التغابن:١٦].

وأمّا الحج فدفعه للشهوات ظاهر كما في قوله تعالى: ''الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ''[البقرة:١٩٧]، والرفث هنا ذكر الجماع ودواعيه، والجدال المناقشة والمشادة، والفسوق إتيان المعاصي كبرت أم صغرت، والنهي عنها ينتهي إلى الارتفاع على دواعي الأرض والشهوات الحسية والمعنوية، والرياضة الروحية التي ترتفع بالنفس الإنسانية[٣٣٨]، والنّاظر في حالِ حجاج بيت الله الحرام – بعد عودتهم من الحج – يُدرك معنى التزكية التي حصَّلوها.

والحد الأدنى للتزكية في العبادات ما ورد في حديث الرجل النجدي الذي جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُه عَنِ الإِسْلاَمِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ''خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ''، فَقَالَ: هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: ''لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ''، فَقَالَ: هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: ''لاَ، إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ''، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكَاةَ؛ فَقَالَ: هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: ''لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ''؛ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ''أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ''[٣٣٩].

ثمَّ يتفاوت الناس في درجة النقاء النفسي والرقي في المعاني الإنسانية والتعالي عن الشهوات تبعاً لاجتهادهم في تحصيل نوافل العبادات، وشاهد هذا الحديث القدسي ''مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا''[٣٤٠]، ومعنى الحديث أنه إذا أدّى الفرائض وداوم على

---

[336] روح المعاني (٢٥/١١) مع بعض التصرف.

[337] سنن أبي داوود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر (٥٠٥/١) رقم(١٦٠٩).

[338] م/ انظر: ظلال القرآن (١٧٢/١).

[339] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (٤٠/١) رقم(١١).

[340] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٢٣٨٤/٥) رقم(٦١٣٧).

إتيان النوافل ارتقى في سلم الصعود؛ فيزداد تحرراً من الشهوات، ولذلك سعى المربون من لدن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحتى يومنا هذا إلى دعوة أتباعهم إلى الإكثار من الطاعات والنوافل حتى تزكو نفوسهم، وتصفو سرائرهم.

الذكر والفكر

ويُلحق بالعبادات الفكر والذكر، وقد وردت النصوص في القرآن والسنة تُظهرُ فائدة الذكر في مقاومة الشهوة وطرد الشيطان، يقول تعالى: ''إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ''[الأنفال:٢]، والخوف من الله تعالى يمنع المؤمن من مخالفة شرعه، ويقول تعالى: ''إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ''[المائدة:٩١]، فجمع بين الشهوة وغياب الذكر.

ومن السنّة حديث الغار حين قال أحدهم: ''اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا فَقَالَتْ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ''[٣٤١]، والشاهد أنّ تذكيرها له بالله دفعه إلى الامتناع عن ممارسة الشهوة الحرام، وأبين من ذلك قولُه صلى الله عليه وسلم: ''ما من مولود إلا على قلبه الوسواس؛ فإن ذكر الله خنس''[٣٤٢]، فهذا دليل على أنّ الذكرَ حصارٌ للشيطان.

أمّا الفكر فأعني به النّظر والاعتبار؛ فكل شهوة في الحياة مهما بلغت مُنقضيةٌ؛ فالحياة – التي هي وعاءٌ للشهوات – متاع زائل، وخير تعبير هو تعبير القرآن ''وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ''[آل عمران: ١٨٥]، تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة[٣٤٣]، كما قال تعالى: ''بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى''[الأعلى:١٦، ١٧]، وقال تعالى: ''وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ''[الرعد:٢٦]، وقال تعالى: ''مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ''[النحل:٩٦]، وفي الحديث: ''وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِى الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ''[٣٤٤].

والخلاصة هي أنّ المنهج القرآني في دفع الشهوة وتزكية النفس يتمثل بما يلي:

---

[341] صحيح البخاري، كتَاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل (٧٩٣/٢) رقم(٢١٥٢).

[342] المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الناس (٥٩٠/٢) رقم(٣٩٩١).

[343] تفسير ابن كثير (٥٧٧/١).

[344] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فَنَاءِ الدُّنْيَا وَبَيَانِ الْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَة (٢١٩٣/٤) رقم(٢٨٥٨).

أولاً: تزكية النفس بغرس القيم والمثل المؤسسة على التوحيد.

ثانياً: إضعاف الشهوة بأنواع من الرياضات، والبعد عن كل مثير لها.

ثالثاً: تصبير للنفس لقاء الأجر الموعود عند الله في اليوم الآخر؛ فمقصد التزكية هو تحرر النفس من الخضوع لسيطرة الشهوة لا من الشهوة عينها.

الخاتمة

إذا علمنا أنّ الطاغوت هو كل ما يُطغي الإنسان؛ فإنّ التحرير المنشود هو دفعٌ للشبهات وكبحٌ للشهوات، وكلا الأمرين محله النفس، والمعنى أنّ معركة التحرير ميدانها النفس، ولذا نهج القرآن الكريم في عملية التحرير من الطاغوت منهجا يقوم على إسقاط الطاغوت داخل النفس البشرية، وحشد القرآن كل الوسائل الضرورية لتلك العملية، فكل جزئية في الدّين تخدم عملية التحرير والتحرر والانعتاق، وهو ما يُعبرُ عنه بالتكامل والتناسق داخل المنهج.

لقد تبين لنا أنّ دعوة القرآن للتحرر دعوة تقوم على واقع لا على خيال؛ فحين نُكلف بأمر – أي أمر – فإنّ الله لا يكلفنا إلاّ وقد بيَّن لنا السبيل لتحقيقه والقيام به؛ فالقرآن بين لنا الغاية ووسائلها وأدواتها، وهو معنى قوله تعالى: ''إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ''[الإسراء:٩] ، ثمَّ بعد هذا لا نُكَلَّفُ فوق ما نستطيع؛ فبيان السبيل والقدرة على السير فيه أمران ضروريان أوضحهما القرآن في منهجه في تحرير الإنسان من الطاغوت.

ويظهر لنا من خلال البحث أنّ الذي يستَّرِقُّ الإنسان هي شهواته سواء كانت مادية أم معنوية، وتتناسب درجة الإسترقاق طردياً مع تضخم الشهوة؛ فكلما استحكمت الشهوة في نفس الإنسان اقترب من الحالة الطاغوتية التي يُصبحُ فيها هواه إلهاً، والعوامل التي تدفع باتجاه تضخم الشهوات وسيطرتها هي: النفس الأمارة بالسوء والشيطان سواء كان من الجنّ أو الناس، ولكن لا مدخل للشيطان إلاَّ من بوابة الشهوة، وقد أسهبتُ في الفصل التمهيدي ممّا يُغني عن الإعادة، ولكن ذكرتُه لنتبين أنّ التحرر الإنساني ومحاولة تحرير الإنسان تبدأُ من داخل نفسه وتنتهي فيها، وأي محاولة أخرى هي في الاتجاه غير الصحيح.

العبوديةُ الحقيقية هي سيطرة الشهوات، وخير دليل على ذلك قوله تعالى: ''وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ''[محمد: ١٢]، فهؤلاء انساقوا وراء شهواتهم كالحيوانات لا تعرفُ حداً ولا تنظيماً، إنّما تُسيِّرها الغريزة، ومن كانت حالُه كذلك فهو في الدرك الأسفل لا يحملُ أيَّ معنىً من معاني الإنسانية.

وكما أنّ قمع الشهوة وكبتها وإنكارها له آثاره الكارثية على الفرد والمجتمع؛ فإنّ إطلاق العنان للشهوة دون حدٍ أو تنظيم لا يقلُّ كارثية عن الكبت، ولهذا كان منهج القرآن وسطاً في الأمور، فلا نحن نتمي إلى مدرسة الرهبانية، ولا إلى المدرسة الإباحية، وهو أحد معاني قوله تعالى: ''وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا''[البقرة: ١٤٣]، والوسطية بمعنى العدل بين الأمور والاعتدال فيها خاصية أصيلة في منهج القرآن عموماً، لأنّ المقصود الأساس هو تحرر الإنسان؛ فلا الكبت حريةٌ، ولا الفوضي انعتاق، بل الكبت والفوضى قيودٌ ورقٌ.

إنَّ التحرر الكامل هو شعور الإنسان بقدرته على الاختيار دون ضغوط مادية أو معنوية، والطاغوت مناف لهذه المعاني، فهو في الإتجاه المعاكس تماماً، وهذه المعاني أصيلة في منهج القرآن في تحرير الإنسان، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى: ''لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ''[البقرة:٢٥٦]، ولا تتمُّ للإنسان قدرته على الاختيار إلاّ بتحرره من الشهوات والشبهات.

وخطورة الشبهات تظهر في أمرين هما:

الأول: التشكيك بقاعدة التحرر الأساسية ألا وهي التوحيد، أو التشكيك بالنّبوة وهو نسفٌ للدّين من قواعده، أو الأمرين معاً، وإذا ما استطاع أصحاب الهوى من تحقيق أي إنجاز على هذا المستوى؛ فقد أطلقوا حينئذ الإنسان من كل قيمه ونُظمه؛ فلا يبقى أمامه مسيرٌ سوى الشهوات، وهو الرقُّ بعينه.

الثاني: تزيين الباطل واعتباره حقاً، كما كان أهل الجاهلية الأولى يعتقدون بنفع الصنم وضره، ولهذا الباطل أنصاره، فهم يُنفقون الأموال ويُجيرون الإعلام لمثل هذا تحت مُسميات برّاقة كالحرية وتحقيق الشخصية المُستقلة، أو تطور الإنسان، وهكذا.

ولهذا قام المنهج القرآني – وهو يخوض معركة التحرر والتحرير – ببيان الباطل والرد عليه، فالنفس حين تهوى أمراً تحاول أنْ تجلب له البرهان ولو كان شبهة من دليل! لأنّها في الحقيقة لا تبحث عن الحق، ولكنّها – حينئذٍ– تبحث عن كل مبرر يسمح لها بالقسط الأوفر من شهواتها، ومثال ذلك قوله تعالى: ''فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ''[النمل:١٣– ١٤]، فليست العلّة في قصور البرهان، وإنّما هو هوى النفس؛ فالعلة هي: (ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع)[٣٤٥]، وهو ما بينْتُ منهج القرآن في التحرر منه.

تمّ البحث بحمد الله

[345] التعريفات (١/٣٢٠).

المراجع

١- أحكام القرآن للجصاص

أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر

الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥

تحقيق : محمد الصادق قمحاوي

عدد الأجزاء : ٥

٢- أضواء البيان

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ١٣٩٣ هـ

الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان

١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م

٣- اعتقاد أهل السنة

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة

المؤلف : هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم

الناشر : دار طيبة – الرياض ، ١٤٠٢

تحقيق : د. أحمد سعد حمدان

عدد الأجزاء : ٤

٤- إعلام الموقعين

إعلام الموقعين عن رب العالمين

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار الجيل – بيروت ، ١٩٧٣

تحقيق : طه عبد الرءوف سعد

عدد الأجزاء : ٤

٥- إغاثة اللهفان

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار المعرفة – بيروت

الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥

تحقيق : محمد حامد الفقي

عدد الأجزاء : ٢

٦- الإتقان

الإتقان في علوم القرآن

المؤلف : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي

عدد الأجزاء : ٢

٧- الإحكام لابن حزم

الإحكام في أصول الأحكام

المؤلف : علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد

الناشر : دار الحديث - القاهرة

الطبعة الأولى ، ١٤٠٤

عدد الأجزاء : ٨

٨- الإعلام بما في دين النصارى

الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام

المؤلف : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله

الناشر : دار التراث العربي - القاهرة ، ١٣٩٨

تحقيق : د. أحمد حجازي السقا

عدد الأجزاء : ١

٩- البرهان في علوم القرآن

محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله

الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٩١

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

عدد الأجزاء : ٤

١٠- التبيان في تفسير غريب القرآن

شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري

الناشر : دار الصحابة للتراث بطنطا - القاهرة

الطبعة الأولى ، ١٩٩٢

تحقيق : د.فتحي أنور الدابولي

عدد الأجزاء : ١

١١- التحرير والتنوير

محمد طاهر ابن عاشور

ط: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٢- م/ التسهيل

التسهيل لعلوم التنزيل

لابن جزي

مكتبة مشكاة الإسلامية

١٣- التعاريف

التوقيف على مهمات التعاريف

المؤلف : محمد عبد الرؤوف المناوي

الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق

الطبعة الأولى ، ١٤١٠

تحقيق : د. محمد رضوان الداية

عدد الأجزاء : ١

١٤- التعريفات

علي بن محمد بن علي الجرجاني

الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤٠٥

تحقيق : إبراهيم الأبياري

عدد الأجزاء : ١

١٥- التفسير الكبير

مفاتيح الغيب

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي

مصدر الكتاب : موقع التفاسير

http://www.altafsir.com

[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

١٦- الجامع الصغير وزياداته

صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته

المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني

الناشر : المكتب الإسلامي

عدد الأجزاء : ١

١٧- الجواب الكافي

كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله
الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت
عدد الأجزاء : ١
١٨- الحجة في القراءات السبع
المؤلف : الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله
الناشر : دار الشروق – بيروت
الطبعة الرابعة ، ١٤٠١
تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم
عدد الأجزاء : ١
١٩- م/ الحكمة في الدعوة إلى الله
المؤلف : سعيد بن علي بن وهف القحطاني
الطبعة : الأولى
الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ
عدد الأجزاء : ١
مصدر الكتاب : موقع الإسلام www.al-islam.com
٢٠- الدر المثور
المؤلف : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي
الناشر : دار الفكر – بيروت ، ١٩٩٣
عدد الأجزاء : ٨
٢١- الرد على المنطقيين
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس
الناشر : دار المعرفة – بيروت
عدد الأجزاء : ١
٢٢- الرد على تصحيح علم الغيب
الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الحظ
المؤلف : محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي أبو الوليد
الناشر : دار ابن حزم – بيروت
الطبعة الأولى ، ١٤١٣
تحقيق : مشهور حسن سلمان

عدد الأجزاء : ١

٢٣- الرسالة المستطرفة

الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة

المؤلف : محمد بن جعفر الكتاني

الناشر : دار البشائر الإسلامية - بيروت

الطبعة الرابعة ، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

تحقيق : محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتاني

عدد الأجزاء : ١

٢٤- م/ الزهد الكبير

المؤلف : البيهقي

مصدر الكتاب : موقع جامع الحديث
http://www.alsunnah.com

[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

٢٥- الزهد وصفة الزاهدين

المؤلف : أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم أبو سعيد

الناشر : دار الصحابة للتراث - طنطا

الطبعة الأولى ، ١٤٠٨

تحقيق : مجدي فتحي السيد

عدد الأجزاء : ١

٢٦- السلسلة الصحيحة

المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني

الناشر : مكتبة المعارف - الرياض

عدد الأجزاء : ٧

٢٧- السيرة النبوية

صحيح السيرة النبوية

المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني

الناشر : المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن

الطبعة : الأولى

عدد الأجزاء : ١

٢٨- السيل الجرار

السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار
المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني
الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت
الطبعة الأولى ، ١٤٠٥
تحقيق : محمود إبراهيم زايد
عدد الأجزاء : ٤

٢٩- العقائد الإسلامية لابن باديس

العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية رواية محمد الصالح رمضان
المؤلف : عبد الحميد بن باديس
الناشر : دار الفتح – الشارقة
الطبعة الأولى ، ١٩٩٥
تحقيق : محمد الصالح رمضان
عدد الأجزاء : ١

٣٠- العين

المؤلف : أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي
الناشر : دار ومكتبة الهلال
تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي
عدد الأجزاء : ٨

٣١- الفائق

الفائق في غريب الحديث
المؤلف : محمود بن عمر الزمخشري
الناشر : دار المعرفة – لبنان
الطبعة الثانية
تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم
عدد الأجزاء : ٤

٣٢- الفروع

تخريج الفروع على الأصول
المؤلف : محمود بن أحمد الزنجاني أبو المناقب
الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت
الطبعة الثانية ، ١٣٩٨

تحقيق : د. محمد أديب صالح

عدد الأجزاء : ١

٣٣- م/ الفروق اللغوية

مصدر الكتاب : موقع يعسوب

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

٣٤- الفصل في الملل

الفصل في الملل والأهواء والنحل

المؤلف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الطاهري أبو محمد

الناشر : مكتبة الخانجي - القاهرة

عدد الأجزاء : ٥

٣٥- الفقه على المذاهب الأربعة

المؤلف : عبد الرحمن الجزيري

(الصفحات مرقمة آليا)

٣٦- الفوائد

القواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من الأحكام

المؤلف : علي بن عباس البعلي الحنبلي

الناشر : مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ، ١٣٧٥ - ١٩٥٦

تحقيق : محمد حامد الفقي

عدد الأجزاء : ١

٣٧- القاموس المحيط

المؤلف : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي

عدد الأجزاء : ١

٣٨- الكشاف

المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله

مصدر الكتاب : موقع التفاسير

http://www.altafsir.com

[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

٣٩- م/ المبدع

المبدع شرح المقنع

لـــابن مفلح المقدسى

عدد الأجزاء / ١٠

دار النشر / المكتب الإسلامى

٤٠- م/ المحرر الوجيز

المؤلف : أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي

مصدر الكتاب : موقع التفاسير

http://www.altafsir.com

[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

٤١- المستدرك على الصحيحين

المؤلف : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤١١ - ١٩٩٠

تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا

عدد الأجزاء : ٤

٤٢- المصباح المنير

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي

المؤلف : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي

الناشر : المكتبة العلمية - بيروت

عدد الأجزاء : ٢

٤٣- م/ المُصفى من علم الناسخ والمنسوخ

الكتاب : المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ

المؤلف : عبد الرحمن بن الجوزي أبو الفرج

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤١٥

تحقيق : د. صالح الضامن

عدد الأجزاء : ١

٤٤- المعجم الكبير

المؤلف : سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني

الناشر : مكتبة العلوم والحكم - الموصل

الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ - ١٩٨٣

تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي

عدد الأجزاء : ٢٠

٤٥- الناسخ والمنسوخ للنحاس

المؤلف : أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس أبو جعفر

الناشر : مكتبة الفلاح - الكويت

الطبعة الأولى ، ١٤٠٨

تحقيق : د. محمد عبد السلام محمد

عدد الأجزاء : ١

٤٦- النهاية في غريب الحديث

الكتاب : النهاية في غريب الحديث والأثر

المؤلف : أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري

الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي

عدد الأجزاء : ٥

٤٧- الوجيز للواحدي

الكتاب : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

المؤلف : علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن

عدد الأجزاء : ١

٤٨- م/ إملاء ما منَّ به الرحمن

مصدر الكتاب : موقع يعسوب

المؤلف : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

٤٩- م/ تاج العروس

الكتاب : تاج العروس من جواهر القاموس

المؤلف : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي

مصدر الكتاب : موقع الوراق

http://www.alwarraq.com

وتتمة الكتاب من ملفات وورد على ملتقى أهل الحديث

http://www.ahlalhdeeth.com

٥٠- تاريخ الطبري

الكتاب : تاريخ الأمم والملوك

المؤلف : محمد بن جرير الطبري أبو جعفر
الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت
الطبعة الأولى ، ١٤٠٧
عدد الأجزاء : ٥

٥١- تحفة الأحوذي

الكتاب : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي
المؤلف : محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا
الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت
عدد الأجزاء : ١٠

٥٢- تذكرة الأريب في تفسير الغريب

للامام ابي الفرج ابن الجوزي

٥٣- تفسير ابن كثير

الكتاب : تفسير القرآن العظيم
المؤلف : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء
عدد الأجزاء : ٤

٥٤- تفسير أبي السعود

الكتاب : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم
المؤلف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود
الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت
عدد الأجزاء : ٩

٥٥- تفسير أسماء الله الحسنى

المؤلف : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد
الناشر : دار الثقافة العربية – دمشق ، ١٩٧٤
تحقيق : أحمد يوسف الدقاق
عدد الأجزاء : ١

٥٦- تفسير الألوسي

الكتاب : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل
الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت
عدد الأجزاء : ٣٠

٥٧- تفسير البغوي

الكتاب : معالم التنزيل

المؤلف : الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد

عدد الأجزاء : ١

٥٨- تفسير البيضاوي

المؤلف : البيضاوي

عدد الأجزاء : ١

٥٩- م/ تفسير التستري

الكتاب : تفسير التستري

المؤلف : التستري

مصدر الكتاب : موقع التفاسير
http://www.altafsir.com
[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

٦٠- تفسير الثعالبي

الكتاب : الجواهر الحسان في تفسير القرآن

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي

الناشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت

عدد الأجزاء : ٤

٦١- تفسير الثوري

الكتاب : تفسير سفيان الثوري

المؤلف : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤٠٣

عدد الأجزاء : ١

٦٢- تفسير الجلالين

المؤلف : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي

وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي

الناشر : دار الحديث - القاهرة

الطبعة الأولى

عدد الأجزاء : ١

٦٣- م/ تفسير السراج المنير

المؤلف : محمد الشربيني الخطيب

٦٤- م/ تفسير السعدي

الكتاب : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي

المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق

الناشر : مؤسسة الرسالة

الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

عدد الأجزاء : ١

٦٥- م/ تفسير السمرقندي

الكتاب : بحر العلوم

المؤلف : السمرقندي

مصدر الكتاب : موقع التفاسير

http://www.altafsir.com

[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

٦٦- تفسير الطبري

الكتاب : جامع البيان عن تأويل آي القرآن

المؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر

عدد الأجزاء : ١٢

٦٧- تفسير القرطبي

الكتاب : الجامع لأحكام القرآن

المؤلف : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله

عدد الأجزاء : ٢٠

٦٨- تفسير النسفي

المؤلف : النسفي

عدد الأجزاء : ٤

٦٩- تيسير العزيز الحميد

الكتاب : تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد

المؤلف : سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

الناشر : مكتبة الرياض الحديثة – الرياض

عدد الأجزاء : ١

٧٠- جامع العلوم والحكم

المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي

الناشر : دار المعرفة – بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ه

عدد الأجزاء : ١

٧١- حادي الأرواح

الكتاب : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

عدد الأجزاء : ١

٧٢- م/ حاشية الأصول الثلاثة

المؤلف : محمد بن عبد الوهاب، وحاشية عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤١٦هـ

٧٣- حاشية السندي

الكتاب : حاشية السندي على النسائي

المؤلف : نور الدين بن عبدالهادي أبو الحسن السندي

الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب

الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ – ١٩٨٦

تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة

عدد الأجزاء : ٨

٧٤- دقائق التفسير

الكتاب : دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (مختارات)

المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس

الناشر : مؤسسة علوم القرآن – دمشق

الطبعة الثانية ، ١٤٠٤

تحقيق : د. محمد السيد الجليند

عدد الأجزاء : ٣

٧٥- م/ دليل الفالحين

الكتاب : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين

المؤلف : محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (المتوفى : ١٠٥٧هـ)

٧٦- ذم الهوى

المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي

تحقيق : مصطفى عبد الواحد

عدد الأجزاء : ١

٧٧- م/ رسالة التوحيد للدهلوي

المؤلف : الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤١٧هـ

عدد الصفحات : ٨٨

عدد الأجزاء : ١

مصدر الكتاب : موقع الإسلام

٧٨- رفع الشبهة والغرر

رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر

المؤلف : مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي

الناشر : دار حراء - مكة المكرمة

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

تحقيق : أسعد محمد المغربي

عدد الأجزاء : ١

٧٩- روح المعاني

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل

الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت

عدد الأجزاء : ٣٠

٨٠- زاد المسير

زاد المسير في علم التفسير
المؤلف : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت
الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤
عدد الأجزاء : ٩

٨١- زاد المعاد

زاد المعاد في هدي خير العباد
المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله
الناشر : مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية – بيروت – الكويت
الطبعة الرابعة عشر ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦
تحقيق : شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط
عدد الأجزاء : ٥

٨٢- سبل السلام

حمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : ١١٨٢هـ)
الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي
الطبعة : الرابعة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م
مصدر الكتاب : موقع مكتبة المدينة الرقمية

٨٣- سنن ابن ماجة

المؤلف : محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني
الناشر : دار الفكر – بيروت
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
عدد الأجزاء : ٢
مع الكتاب : تعليق محمد فؤاد عبد الباقي
والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها

٨٤- سنن أبي داوود

المؤلف : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي
الناشر : دار الفكر
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد
عدد الأجزاء : ٤
مع الكتاب : تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت

والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها

٨٥- سنن الترمذي

الجامع الصحيح سنن الترمذي

المؤلف : محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي

الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت

تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون

عدد الأجزاء : ٥

الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها

٨٦- سنن الدارمي

المؤلف : عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي

الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤٠٧

تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي

عدد الأجزاء : ٢

الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها

٨٧- سنن النسائي

المجتبى من السنن

المؤلف : أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي

الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب

الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة

عدد الأجزاء : ٨

الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها

٨٨- م/ سيرة ابن كثير

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]

مصدر الكتاب: www.qurancomplex.com

٨٩- م/ سيرة ابن هشام

مصدر الكتاب : موقع الإسلام

http://www.al-islam.com

[الكتاب مشكول وترقيمه موافق للمطبوع]

٩٠- شرح السيوطي على مسلم

الديباج شرح صحيح مسلم بن الحجاج

المؤلف : عبدالرحمن ابن أبي بكر أبو الفضل السيوطي

٩١- شرح العقيدة الطحاوية

ابن أبي العز الحنفي

الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت

الطبعة الرابعة ، ١٣٩١

عدد الأجزاء : ١

٩٢- شرح النووي على مسلم

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج

المؤلف : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي

الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت

الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

عدد الأجزاء : ١٨

٩٣- شرح قصيدة ابن القيم

توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم

المؤلف : أحمد بن إبراهيم بن عيسى

الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت

الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦

تحقيق : زهير الشاويش

عدد الأجزاء : ٢

٩٤- شعب الإيمان

المؤلف : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

الطبعة الأولى ، ١٤١٠

تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول

عدد الأجزاء : ٧

٩٥- شفاء العليل

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار الفكر – بيروت ، ١٣٩٨ – ١٩٧٨
تحقيق : محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي
عدد الأجزاء : ١
٩٦- صحيح ابن حبان
صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان
المؤلف : محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي
الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت
الطبعة الثانية ، ١٤١٤ – ١٩٩٣
تحقيق : شعيب الأرنؤوط
عدد الأجزاء : ١٨
الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها
٩٧- صحيح البخاري
الجامع الصحيح المختصر
المؤلف : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي
الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت
الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧
تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق
عدد الأجزاء : ٦
مع الكتاب : تعليق د. مصطفى ديب البغا
٩٨- صحيح مسلم
المؤلف : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري
الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
عدد الأجزاء : ٥
مع الكتاب : تعليق محمد فؤاد عبد الباقي
٩٩- ظلال القرآن
المؤلف : سيد قطب
مصدر الكتاب : موقع التفاسير
http://www.altafsir.com
١٠٠- عقيدة الفرقة الناجية

عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة

المؤلف : محمد بن عبد الوهاب

الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت

الطبعة الثالثة ، ١٣٩٧هـ

عدد الأجزاء : ١

١٠١- م/ عمدة القاري

عمدة القاري شرح صحيح البخاري

المؤلف : بدر الدين العيني الحنفي

مصدر الكتاب : ملفات وورد من ملتقى أهل الحديث
http://www.ahlalhdeeth.com

تنبيه : هذه النسخة معدلة، أضفت إليها نصا كان ناقصا في الأولى.

تاريخ التعديل : ١٩ ربيع الأول ١٤٢٧ هـ

الموافق : ١٧ نيسان (أفريل) ، ٢٠٠٦ م

١٠٢- عون المعبود

عون المعبود شرح سنن أبي داود

المؤلف : محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

الطبعة الثانية ، ١٤١٥

عدد الأجزاء : ١٤

١٠٣- غاية المرام

غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام

المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني

الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت

الطبعة : الثالثة – ١٤٠٥

عدد الأجزاء : ١

١٠٤- غريب الحديث للحربي

المؤلف : إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق

الناشر : جامعة أم القرى – مكة المكرمة

الطبعة الأولى ، ١٤٠٥

تحقيق : د. سليمان إبراهيم محمد العايد

عدد الأجزاء : ٣

١٠٥- غريب الحديث للخطابي

المؤلف : حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان

الناشر : جامعة أم القرى – مكة المكرمة ، ١٤٠٢

تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي

عدد الأجزاء : ٣

١٠٦- فتاوى ابن تيمية

مجموع الفتاوى

المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس

عدد الأجزاء : ٣٥

١٠٧- فتاوى مهمة

فتاوى مهمة لعموم الأمة

المؤلف : عبد العزيز بن باز ، محمد بن صالح العثيمين

الناشر : دار العاصمة – الرياض

الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ

تحقيق : إبراهيم الفارس

عدد الأجزاء : ١

١٠٨- فتح الباري

فتح الباري شرح صحيح البخاري

المؤلف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي

الناشر : دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩

تحقيق : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي

عدد الأجزاء : ١٣

١٠٩- فتح القدير

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

المؤلف : محمد بن علي الشوكاني

عدد الأجزاء : ٥

١١٠- م/ فتح المجيد

فتح المجيد شرح كتاب التوحيد

المؤلف : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

الطبعة : الخامسة

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤٢١هـ

عدد الصفحات : ٤٨٠

عدد الأجزاء : ١

١١١- فهم القرآن

فهم القرآن ومعانيه

المؤلف : الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي أبو عبد الله

الناشر : دار الكندي ، دار الفكر – بيروت

الطبعة الثانية ، ١٣٩٨

تحقيق : حسين القوتلي

عدد الأجزاء : ١

١١٢- فيض القدير

فيض القدير شرح الجامع الصغير

المؤلف : عبد الرؤوف المناوي

الناشر : المكتبة التجارية الكبرى – مصر

الطبعة الأولى ، ١٣٥٦

عدد الأجزاء : ٦

مع الكتاب : تعليقات يسيرة لماجد الحموي

١١٣- حجج القرآن

المؤلف : أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي

الناشر : دار الرائد العربي – بيروت

الطبعة الثانية ، ١٩٨٢

تحقيق : أحمد عمر المحمصاني

عدد الأجزاء : ١

١١٤- / كشف الشبهات

المؤلف : الإمام محمد بن عبد الوهاب

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤١٨هـ

عدد الصفحات : ٦٠

عدد الأجزاء : ١

١١٥- كلمة الإخلاص

كلمة الإخلاص وتحقيق معناها

المؤلف : الحافظ ابن رجب الحنبلي

الطبعة : الرابعة

تحقيق : خرج أحاديثها : العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني

عدد الأجزاء : ١

١١٦- كنز العمال

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال

المؤلف : علي بن حسام الدين المتقي الهندي

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩ م

الصفحات مرقمة آليا

لكن ترقيم الأحاديث موافق للمطبوع

١١٧- لسان العرب

المؤلف : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري

الناشر : دار صادر - بيروت

الطبعة الأولى

عدد الأجزاء : ١٥

١١٨- مؤلفات ابن عبد الوهاب

المؤلف : محمد بن عبد الوهاب

الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض

تحقيق : عبد العزيز زيد الرومي ، د. محمد بلتاجي ، د. سيد حجاب

عدد الأجزاء : ١

١١٩- مجمع الزوائد

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

المؤلف : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي

الناشر : دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ

عدد الأجزاء : ١٠

١٢٠- مختار الصحاح

المؤلف : محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي

الناشر : مكتبة لبنان ناشرون – بيروت

الطبعة طبعة جديدة ، ١٤١٥ – ١٩٩٥

تحقيق : محمود خاطر

عدد الأجزاء : ١

١٢١- مختصر تفسير ابن كثير

المؤلف : محمد علي الصابوني

عدد الأجزاء : ٣

١٢٢- مدارج السالكين

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت

الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣

تحقيق : محمد حامد الفقي

عدد الأجزاء : ٣

١٢٣- م/ مذكرة التوحيد

المؤلف : عبد الرزاق عفيفي

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤٢٠هـ

عدد الصفحات : ١٥٢

عدد الأجزاء : ١

١٢٤- مسند أبي يعلى

المؤلف : أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي

الناشر : دار المأمون للتراث – دمشق

الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤

تحقيق : حسين سليم أسد

عدد الأجزاء : ١٣

الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها

١٢٥- مسند أحمد

المؤلف : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني
الناشر : مؤسسة قرطبة – القاهرة
عدد الأجزاء : ٦
الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها
١٢٦- مسند الحميدي
المؤلف : عبدالله بن الزبير أبو بكر الحميدي
الناشر : دار الكتب العلمية ، مكتبة المتنبي – بيروت ، القاهرة
تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي
عدد الأجزاء : ٢
١٢٧- مشكاة المصابيح
المؤلف : محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي
الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت
الطبعة : الثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥
تحقيق : تحقيق محمد ناصر الدين الألباني
عدد الأجزاء : ٣
١٢٨- م/ مشكل الآثار للطّحاوي
مصدر الكتاب : موقع جامع الحديث
http://www.alsunnah.com
١٢٩- م/ مطالب أولي النهى
مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى
مصدر الكتاب : موقع الإسلام
http://www.al-islam.com
١٣٠- معارج القبول
معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول
المؤلف : حافظ بن أحمد حكمي
الناشر : دار ابن القيم – الدمام
الطبعة الأولى ، ١٤١٠ – ١٩٩٠
تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر
عدد الأجزاء : ٣
١٣١- معاني القرآن

معاني القرآن الكريم للنحاس

الناشر : جامعة أم القرى – مكة المرمة

الطبعة الأولى ، ١٤٠٩

تحقيق : محمد علي الصابوني

عدد الأجزاء : ٦

١٣٢- مفاهيم إسلامية

المصدر : موقع وزارة الأوقاف المصرية
http://www.islamic-council.com

١٣٣- مفردات القرآن

الكتاب : مفردات غريب القرآن

المؤلف : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى

مصدر الكتاب : موقع يعسوب

١٣٤- مناهل العرفان

مناهل العرفان في علوم القرآن

المؤلف : محمد عبدالعظيم الزرقاني

الناشر : دار الفكر – بيروت

الطبعة الأولى ، ١٩٩٦

تحقيق : مكتب البحوث والدراسات

عدد الأجزاء : ٢

١٣٥- م/ نظم المتناثر

المؤلف : الشيخ محمد جعفر الكتاني

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

١٣٦- نيل الأوطار

نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار

المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني

الناشر : إدارة الطباعة المنيرية

عدد الأجزاء : ٩

مع الكتاب : تعليقات يسيرة لمحمد منير الدمشقي